

بلند الحیدری وتعشق الظلمة

شوقي يوسف بهنام

بلند الحيدرى و تعشق الظلمة

رؤية نفسية



دار آراس للطباعة والنشر

اربيل - اقليم كردستان العراق

جميع الحقوق محفوظة ©
دار آراس للطباعة والنشر
شارع گولان - اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الالكتروني aras@araspres.com
الموقع على الانترنت www.araspublishers.com
تأسست دار آراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

شوقي يوسف بهنام
بلند الحيدري وتعشق الظلمة
المراجعة اللغوية: د. ليلى محمد علي
منشورات آراس رقم: ١٣٣٧
الطبعة الأولى ٢٠١٢
كمية الطبع: ٦٠٠ نسخة
مطبعة آراس - اربيل
رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٢٨٤٠ - ٢٠١٢
الاخراج الداخلي: كارزان عبدالحميد
الغلاف: آراس أكرم

ردمك:

ISBN: 978-9933-488-06-2

المحتويات

٧ المقدمة
٨ أحزان الخيبة
١٣ ضجيج الرنين قراءة نفسية لقصيدة "الوحشة"
٢٤ الرحيل وسراب الخلاص قراءة نفسية لمجموعة (خطوات في الغربية)
٥٣ من كوة الزنزانة قراءة نفسية لمجموعة أغاني الحارس المتعب
٦٥ حوار مع العدم
٧٣ من الأعماق
٨٦ بلند الحيدري وتعشق الظلمة

المقدمة

بلند الحيدري شاعر خمسيني معروف وهو ينتمي الى الجيل الثاني من حركة الشعر العراقي الحديث. بلند شاعر مغترب.. مرهف الحس له رؤية للعالم وموقف من الوجود.. بلند شاعر مهمل من الناحية النقدية. لم يكتب عنه الا القليل. ولن أناقش في هذه المقدمة أسباب هذا الإهمال.. هذا أمر متروك لمؤرخي الأدب ونقادهم. ولكن ما حاولته هنا هو إبراز صورة بلند التي تتخفى وراء نصوصه ومنجزه. هذه الصورة تعتمد على تنظيرات علم النفس والتحليل النفسي وباقي مجالات العلوم الإنسانية الأخرى التي تتخذ من النص سلماً لدراسة علاقة الشاعر بالعالم الذي يعيش بين جوانبه. أتمنى ان يكمل زملائي المشوار الذي بدأته مع بلند.. ذلك الصوت الصارخ بوجه العالم.. الراض لقيمه وطغيانه وسطوته العمياء.. متمنيا ان تكون هذه المحاولة نقطة البداية لا غير.

المؤلف

شوقي يوسف بهنام

جامعة الموصل

كلية التربية / الحمدانية

e-shawaiyusif@yahoo.com

أحزان الخيبة

في قصيدة " شيخوخة " يعيش شاعرنا " بلند " محنة الخيبة وأحزانها بعد تقادم الزمن عليه. ففي هذه القصيدة يصف لنا مسيرة عمره المتعب عبر قطار الزمن. فهو لم يحقق شيئاً، على ما يبدو، مما كان يحلم به منذ ان لامس وعيه هذا الوجود. وفي القصيدة وصف جميل لغربة الشاعر الوجودية وعزله عن العالم وحنينه إلى حيث يحلم أي رجل أو امرأة أن يكون في هذا الوجود. فالشاعر، هنا، لا يعبر عن عزله الوجودية فحسب بل عن عزله الجنسية أيضاً. ولن اتهم الشاعر، هنا، بالخيانة الزوجية أو السلوك الجنسي الاباحي الذي لا يقف عند الحدود المتعارف عليها في المجتمع. بل سوف أقول عنه انه شخص غير موفق في حياته عموماً والجنسية منها خصوصاً. وحتى لا نتمادى في تأويلاتنا سوف نقرأ القصيدة لكي نرى مدى صحة هذه التأويلات. يقول الشاعر في هذه القصيدة:

شتوية أخرى

..... وهذا أنا

هنا

بجنب المدفأه

احلم أن تحلم بي امرأه

احلم ان ادفن في صدرها

سرا

فلا تسخر من سرّها
أحلم أن اطلق في منحنى
عمري سنى
تقول :
..... هذا السنى ملكي فلا تقرب له
امرأة

الديوان، ص ٣٠٦ - ٣٠٧*

من خلال عبارته " شتوية أخرى " يفهم منها ان هناك أكثر من شتوية
مرت على الشاعر. وكل ما مر من هذه الشتاوي كان نصيبها الخيبة وعدم
تحقيق ما يصبو إليه " بلند " وهاهو الحزن يتكرر ويتجدد مرة أخرى. وهو لا
يحلم بإمرأه فقط بل هو يحلم بأن يكون هو موضوع حلمها أو هي تحلم به.
فهو بهذا المعنى لا يحلم بها لكونه رجلاً يحتاج إلى امرأه بل هي التي تحتاج
إليه. معنى هذا ان " بلند " هو مصدر سعادتها وليس العكس أو السعادة
القائمة على التكامل على الأقل. هذا هو السر إذن الذي يحلم الشاعر ان يدفنه
في صدرها وهي بدورها تشيعه أو تعلنه على الملاء على انه سنى العمر.
وبهذا يجلس الشاعر سعيداً متربعا على عرش جسدها. يحلم ان يكون
مصباحاً.. نجماً يضيء ظلمة العالم^١ وفي هذا إشباع لنرجسية الشاعر. فهو
يعيش محنة التهميش كما رأينا في قراءتنا الأخرى عن الشاعر^٢. هذا
التهميش جعله بوصفه اسلوباً يلجأ الى حلم اليقظة أسلوب لإشباع رغباته
وقد ترجم حلم اليقظة هذا الى منجز شعري. لنرى ما هي الصورة التي
يرسمها الشاعر عن مسيرة حياته في المقطع الآتي، إذ يقول:

هنا
بجنب المدفأة
شتوية اخرى
وهذا انا
انسج احلامي واخشاها
اخاف ان تسخر عيناها
من صلعة حمقاء في رأسي
من شيبة بيضاء في نفسي
اخاف ان تركل رجلاها
حبي
فامسي انا
هناك
جنب المدفأة
العوبة تلهو بها امرأه

الديوان، ص ٣٠٧-٣٠٨

انها صورة دقيقة عن ذاته.. جسمه.. صلعته الحمقاء على وجه الخصوص
شعرات رأسه البيضاء.. تلك الصلعة الممتلئة بالأوهام.. يصف لنا صلعته إنها
حمقاء وهو تعبير جميل عبر من خلاله عن آراء الآخرين عنه. المقطع يفوح
بالخوف والتوجس وعدم الثقة بالغد وبتلك التي سترافقه وبالتالي سيكون
مثار سخرية وربما سيركل بأرجل تلك التي حلمت به ويكون العوبة لها...
ويبقى مكوناً جنب المدفأة.. المدفأة.. طالما تغنى بها الفيلسوف الفرنسي
الكبير " باشلار " واعدّها علامة للعزلة والاعتكاف والانسحاب عن العالم..

وهاهو بلند يستخدم نفس الدلالة لوجوده في العالم. إذن هو يخاف من ان يغرق في العزلة والوحدة وصلعته تزداد حمقا. نعتقد ان " بلند " يبدو واقعيا في تعامله مع ذاته. ومن ثم فان هذا الخوف من غزو هذه المشاعر هو خوف طبيعي. قد يكون مبالغا فيه نوعا ما.. لكنه يبقى أمرا مشروعاً. كيف ينهي "بلند" متاعب عزلته هذه؟ في المقطع الأخير من القصيدة. يقول:

شتوية أخرى وهذا أنا

وحدي

لا حب

لا أحلام

لا أمراه

عندي

وفي غد أموت من بردي

هنا

بجنب المدفأه

الديوان، ص ٣٠٨ - ٣٠٩

لقد دب اليأس كل " بلند ". ها هي شتوية مرت، والحال هو الحال.. لم يتغير شيئاً لديه. واذا كان في الماضي يحلم... يحب.. لديه بصيص من الأمل.. ها هو الآن سوف يصبح جبلاً مجرد من كل حياة ويتحول الى حجارة صماء تنتظر من يحركها كما يشاء. مخاوفه التي رأيناها في المقطع السابق.. باتت في المقطع الأخير أمراً مفروغاً منه.. أصبحت واقعا معيشياً. إن " بلند " قد وصل إلى ذروة الفشل في أحلامه وأحاسيسه ومشاعره. لقد كان دقيقاً في التعبير عن ذلك الفشل عندما قال:

وفي غد أموت من بردي

هنا بجنب المدفأه

نعم المسألة ليست برداً أو حراً فيزيائيين. ولا علاقة لحالة الشاعر بوجود "مدفأه" من عدمه. المدفأه هي علامة من علامات غربته وعزلته في العالم.. هذا العالم الذي لم ينصف "بلند" ولم يقدره حق قدره ولم يمنحه المكانة التي يستحقها. أنا أتعامل مع "بلند" بوصفه خطاب قصيدة، ولا علاقة لي بتفاصيل حياته كما ترسمها السياقات الاجتماعية. زواجه من عدمه. نجاحه أو فشله فيه. هذا أمر متروك للشاعر. أنا أتناول نصاً يقول فيه "أنا". ما مدى مصداقيته من عدمه فهذا الأمر متروك للشاعر أيضاً.

الهوامش

- الحيدري، بلند، الديوان ، ١٩٨٠، دار العودة، بيروت، لبنان.

١. هذا ما سوف نراه في قراءتنا لقصيدته المعنونة "أود لو كنت"

٢. راجع دراساتنا التالية:

- من كوة الزنزانة، قراءة نفسية لمجموعة "أغاني الحارس المتعب".

- الرحيل وسراب الخلاص، قراءة نفسية لمجموعة "خطوات في الغربة".

- صرخة من الأعماق ، قراءة نفسية لقصيدة "أنت مدان يا هذا".

- ضجيج الرنين، قراءة نفسية لقصيدة "الوحشة".

ضحيج الرنين قراءة نفسية لقصيدة "الوحشة"

في قصيدة "الوحشة" يصف لنا شاعرنا "بلند الحيدري" واحدة من متاعبه النفسية الذاتية والتي يعكس فيها اطلاعه على المنظور الوجودي للإنسان.. ذلك المنظور الذي يتبناه الشاعر على ما يبدو. ولا نريد إقحام هذا التصور عليه. اعني أن الشاعر يتبنى المنظور الوجودي للإنسان والوجود. ذلك المنظور الذي ينطلق من مقولة العبث على أنها هي التي تسود الوجود بما فيه الإنسان. والواقع انه ليس من مهمتنا الدخول في تفاصيل هذه الفلسفة في هذه السطور، لأننا معنيون هنا بقراءة قصيدة شعرية لا غير وليس كتابا أو مرجعا عن الفلسفة الوجودية^١. يكفينا هذا التنويه بالخلفية الفلسفية التي تنطلق منها القصيدة. إذ نستطيع القول ان "بلند" يوظف خبرة نفسية طالما انطلق منها الوجوديون لعرض تصوراتهم عن الإنسان والعالم. ولما لا نقول ان شاعرنا ينضم إلى هؤلاء.. اعني انه أصبح كالوجوديين في أسلوبهم وفهمهم ونظرتهم للوجود والعالم. عنوان القصيدة دال في معناه دلالة عميقة. "الوحشة" تلك المفردة التي تعبر عن عزلة الإنسان في العالم والانغلاق على نفسه. انه فقدان التواصل مع العالم. يرى صاحب القاموس المحيط ان الوحشة هي "... الهم ، والخلوة، والخوف"^٢. والوحشة في المصطلح الصوفي كما يرى الشرقاوي في معجمه موردا رواية عن "الجنيد" الصوفي البغدادي الكبير ما يلي "بكى الجنيد رضى الله عنه عندما سمع هذا البيت:

منازل كنت تهواها وتألفها أيام أنت على الأيام منصور

ثم قال : ما أطيب الألفة والمؤانسة، وما أوحش مقامات المخالفات والوحشة، ولا أزال أحسن ارادتي، وجدة سعبي وركوبي الأهوال، والمعروف أن الجنيد كان شيخ الصوفية وإمامهم وانه كان من أصحاب المقامات العليا الرفيعة ومن العارفين بالله، ولكن الأنس بالله هو العيش الحق عند الأولياء الكمل، وأما الوحشة فهي اللاعيش، لأنه اتصال مع الخلق، وبعد عن الخالق، فلا يطيق الصوفي في هذه الوحشة ويطلب الإنس. ويروي لنا اليافعي عن بعض الصوفية قال : كنت على بساط الأنس وفتح علي باب من البسط، فزلت زلة، فحجبت عن مكاني، فكيف السبيل إلى ما كنت عليه؟ وكان يسمعه الشيخ الجريري فبكى وقال : الكل في قهر هذه الحالة وانشد ابياتا يجد فيها جوابه منها.

قف بالديار فهذه آثارهم وابك الأحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بربعها مستخبرا من أهلها متحيرا أو مشفقاً^٣

ويضح الحفني الوحشة في موسوعته الصوفية "مقابل الأنس، والوحشة هي الخلوة، والههم، وبعد القلب عن المودات، واستوحش ضد استأنس، أي وجد الوحشة أو شعر بها، يقال : إذا اقبل الليل استأنس كل وحشي واستوحش كل إنسي.. والصوفية أخلاقهم السكون عند الفقر، والاضطراب عند الوجود، والأنس بالهموم، والوحشة عند الأفراح^٤. وفي موسوعة الطب النفسي يربط الحفني الاستيحاش بالعزلة Isolation ويعرف العزلة النفسية على أنها " حالة يعيش بها الشخص خوفاً من التعامل مع الناس، وينفر من التواجد معهم، وينأى بعيداً عنهم، وذلك من أعراض الفصام غالباً.

وفي العلاج الجماعي إذا تحقق للمريض ان تكون له علاقة بمريض في مجموعته فذلك تمثل خطوة أولى نحو إنهاء هذه العزلة النفسية. والعزلة الروحية هي الحالة التي يستشعرها الشخص أحيانا عندما تغزو شعوره خبرات لا شعورية يصفها " يونج " بأنها وراثية اكتسبها الإنسان نتيجة خبرات جنسه البشري، ويولد مفطورا بها، فإذا وعها أحيانا فإنه يحس بأنه غريب على نفسه وعلى الناس، ولا يستطيع ان يكتشف سرها، وتدفعه إلى أن يأتي بتصرفات بدائية لا تتفق مع السلوك المدني المتوقع منه، وهي تصرفات يصفها " يونج " بأنها روحية، بمعنى أنها تصدر عن الجزء الأصيل في الإنسان، وهو الجانب القديم الموغل في القدم، والذي نسيه إنسان العصر الحديث، لأنه انطبع بحياته المدنية الشعورية، وأسقط من حسابه الجانب الروحي فيه والذي أصبح منه بمثابة اللاشعور، وهو لاشعور روحي، جماعي أو إنساني، أي يخص الإنسانية كلها، أو الجنس البشري برمته، وهو من الإنسان بمثابة روحه أي الأساس فيه، وبرغم أن الحياة العصرية أفقدته هذا الأساس أنه ما يزال يأتيه في أحوال، فيكون غريبا على نفسه، ويتحدث إلى نفسه فأنة قد جن، أو أنه قد يكون في طريقه إلى الجنون، والعزلة الروحية كما يخبرها لا يستطيعها ويقوى عليها سوى القلة، وهؤلاء القلة هم الذين يعلو عندهم صوت اللاشعور الجمعي، فيستمعون له، وتكون لهم بتأثيره اندفاعات تميزهم عن غيرهم، وتعزلهم عنهم^٥. ويرى البعض "انتوني ستور" ان العزلة عندما تكون قائمة على اختيار شخصي وقرار ذاتي فتلك حالة ايجابية أطلقوا عليها الاعتكاف. وهذه الحالة هي سبب للإبداع والابتكار في مختلف المجالات^٦. ويستعرض هذا العالم عبر صفحات كتابه نماذج من الشخصيات التي اثرت في مسار الحضارة الإنسانية اتخذت من العزلة والاعتكاف طريقا لذلك الإثراء. ويرى هذا الباحث و ان " الشخص المبدع دائم السعي نحو اكتشاف ذاته، ونحو إعادة صياغة هويته، ونحو الوقوع على معنى الوجود من خلال ما يقوم

بخلقه^٧. و ينبغي ان لا ننسى كتاب الفيلسوف الروسي الكبير والمعنون "العزلة والمجتمع"^٨ الذي تناول هذه الإشكالية وقدم عنها رؤى فلسفية ذات منحى وجودي لكنه كان متأثرا بالرؤية المسيحية. وليس من مهمتنا في هذه العجالة ان نستعرض كل ما قيل عن مفهوم الوحشة والعزلة لأن هذا موضوع يحتاج إلى بحث خاص^٩، بل مهمتنا تنصب على معالجة هذا المفهوم انطلاقا من نص شعري. يقول "بلند" في قصيدته هذه:

.. يرن.. يرن..

- من أنت..؟

- أنا أنت

- لقد أخطأت

... وتموت على كفي السماع

الديوان، ص ٤٧٧*

هذا هو المقطع الأول إذن. و لا أريد ان أصادر الشاعر بتحديد هوية المكان. ولكن أهم ما يميز هذا المكان هو عدم انفصاله عن العالم الخارجي وذلك بوجود هاتف يرن. الشاعر إذن غير منفصل تماما. وقد يكون هذا الانفصال إراديا وذا قصدية. بمعنى ان الشاعر هو الذي رغب في هذا الانسحاب. وبالفعل رنين الهاتف. وتكرار مفردة " يرن " إشارة الى فترة زمنية أزعجت مسامع الشاعر. هذا الإزعاج أدى بالشاعر الى ان يرفع السماع. وبلغة انفعالية عدوانية رد على الصوت القادم من السماع.

- من أنت..؟

وكان الجواب مباغتا تماما للشاعر.

– أنا أنت

الجواب غير منطقي بالمرّة. وليس من المعقول ان يكون صاحب الصوت القادم عبر السماعه هو نفسه صوت القائم بالرد عليه. وبالفعل هذا هو الحل الذي قدمه الشاعر لنا.

– لقد أخطأت

إذن من صاحب الصوت القادم عبر السماعه؟ هناك احتمالان. إما أن يكون الشاعر قد عانى من هلوسة سمعية وتخيل بأنه يسمع رنين الهاتف نتيجة للحرمان الحسي الناتج عن العزلة، والاحتمال الثاني هو ان الشاعر ابتكر هذه الحوارية البيّنذاتية ليعبر من خلالها عن أحزان وحشته ومتاعبه من العالم. أنها صورة لتمزق الأنا وتناثرها لديه. ان موت السماعه على كف الشاعر هو إعلان عن رغبة الشاعر بديمومة عزلته ورفض كل ما له علاقة بالعالم الخارجي. ونحن نميل الى تبني الاحتمال الثاني. لنرى ما الذي يجوب في مخيلة الشاعر من خلال المقطع الثاني. يقول " بلند " في هذا المقطع:

... ويرن الصوت

.. يرن... يرن... يرن ..

– من أنت...؟

– أنا أنت لقد اخطأت ، فنحن اثنان

ومن ارضين بلا الوان

وأنا لا أعرف من انت

لقد أخطأت

... ويجف الصمت

والموت المتململ في السماعه

يئن.. يئن

من نحن.. من نحن.. من نحن...

الديوان، ص ٤٧٨

ها هنا مرة أخرى يلح رنين الهاتف على شاعرنا ويعاوده الصوت ذاته. ومرة أخرى يدور ذات الحوار بين الشاعر وذلك الصوت المجهول، لنا، والمعلوم لاشعوريا عند الشاعر. يؤكد الشاعر للصوت " بأنه مخطيء وبأنه من ارض غير الأرض التي يأتي الصوت منها. هنا دالة واضحة للشعور بالاغتراب لدى الشاعر. كل واحد منهما من ارض تختلف عن الأخرى. المهم هو إنهما مختلفا الهوية حتى الشاعر نفسه يقع في حيرة من أمره وتتجلى تلك الحيره بعبارة " من نحن ". تكرار العبارات والمفردات والأفكار ظاهرة شائعة في شعر " بلند "، هذه الملاحظة ينبغي ان تكون من اهتمام النقاد المهتمين بالجوانب الأسلوبية في النص الشعري. وفي تقديرنا ان التكرار هو هيمنة فكرة واحدة على مخيلة الشاعر لا يستطيع مغادرتها ودالة على نضوب في القاموس الشعري لديه. ضياع الهوية التي ينهي بها الشاعر مقطعه هذا يذكرنا بالحيرة التي استبدت بشاعر المهجر الكبير " إيليا أبي ماضي " حول ذاته التي يمتلكها ولا يدري ما هي؟؟؟ هل هذا توارد أفكار- بلند أو تناص أو اقتباس من شاعر المهجر الكبير؟ ان ظاهرة الموت المتململ في السماعه لهي إشارة الى تأثر شاعرنا بالمفاهيم السائدة في الفلسفة الوجودية مثل الضجر والفراغ والضياع وما الى غير ذلك من المفاهيم السائدة في تلك الفلسفة. لننتقل الى المقطع الثالث لنرى ماذا حل بالشاعر وبصوته الغائص في دواخله. يقول "بلند":

... ويرن الصوت

... يرن... يرن... يرن... يرن

- من أنت ؟

- - أنا أنت

- لقد أخطأت.. وأخطأت

وأخطأت

- لا أنت أنا

- وأنا لا أعرف من نحن...

هل نحن اثنان

أم جيل...أم جيلان

يتمدد بينهما الزمن

- لا أدرك ما تعني

- لكنني... سأظل أنازع في السماعه

سأظل لأنني

أبحث عن صوت مني

محبوس في صمت السماعه

في موت السماعه

الديوان، ٤٧٨-٤٧٩

فكرتان فقط استحدثتهما الشاعر في مقطعه هذا حول هوية كل منهما.. اعني هو وذلك الصوت المجهول الذي طالما انتظره بلند في حياته الواقعية.. اعني ان يعرف هوية كينونته. هذه الفكرة تتجلى بتساؤل الشاعر

فيما ما إذا كانا من جيل واحد أم جيلين. هذا التساؤل يقودنا الى إحساس الشاعر بالغربة في جيله وزمانه وفي أرضه. هذا من جهة. أما من الجهة الأخرى فان الاختلاف في الوجود بين الأجيال هي استثمار الشاعر لفلسفة التناسخ التي تقول بها الفلاسفة الهندية.

هنا يحس " بلند " بأنه شخص قد عاش في جيل آخر وها هي روحه وروح ذلك الصوت يعيشان فرصة التلاقي والحضور ومن هنا ضياع الهوية التي يعيشها كل منهما. الفكرة الأخرى هي هذا الإصرار من شاعرنا لكي يمسك بأهداب هويته الممزقة.. الضائعة.. المنشطرة..... هذا الإصرار يترجمه الشاعر بعبارته "

سأظل أنازع في السماعه

سأظل لأنني

ابحث عن صوت مني

إن الشاعر يريد فرادته.. يريد ان لا يكون كالأخرين.. لا يريد إلا أن نجما ساطعا وضاء يكشف عن ظلمة الآخرين وعممة الوجود. لا يريد أن يكون إمعة. ينبغي ان نعرف ان معنى كلمة " بلند " باللغة الكردية تعني العالي. وكمعنى اسمه يريد ان يكون وسوف يظل ينازع حتى النفس الأخير عن ذلك الصوت المحبوس.. المختنق.. الغائص في هوة الضياع.. كل هذه الدلالات توحى بها عبارته " موت السماعه ". المقطع الرابع صغير جدا ولكن " بلند " يعيش الفشل والإخفاق ويترك السماعه لكي تتأرجح الى حيث هي تريد ويجلس هو على كرسيه الهزاز ليضيع في الدخان المتصاعد من غليونه. يقول المقطع الرابع:

- اخطأت... لقد اخطأت واخُ

... ويموت الصوتان في السماعه

الديوان، ص ٤٨٠

لا يزال الشاعر مصرا على ان هذا الصوت ليس هو وهو ليس ذلك الصوت..
نعم أنت مخطيء يا هذا إنا لست - كما تدعي. في هذا المقطع اختفى
الصوت... بل اختفى الصوتان بل ماتا في السماعه.. السماعه، في تقديرنا
هي هذه الوسيلة للتواصل بيني وبين العالم الخارجي فعندما تتعطل
السماعه فذلك يعني اختفاء التواصل وموته ليعيش الكائن في قوقعته
التي يقي نفسه بها وحيدا مستوحشا عن كل ما في العالم.. ترى هل هذه
هي السعادة هي التي يحلم بها " بلند " أن يبقى أسير البحث عن صوته بين
ضجيج الأصوات الأخرى ورنينها المقرف الذي لا يعرف السكينة. ننتقل
الى المقطع الخامس و الأخير لنرى كيف ينهي شاعرنا " بلند " هذه الدوامة
التي يصف مراحلها عبر هذه القصيدة. يقول بلند:

ويرن الصوت

... يرن... يرن... يرن... يرن... يرن

أجيال تتهدم في أذني

.....

لا شيء منك ولا مني

من نحن... من نحن...

صوتان يموتان مع السماعه

الديوان، ص ٤٨٠

هناك مسألة مهمة ينبغي ان نقف عندها وهي "يرن" عبر مقاطع القصيدة في تزايد تصاعدي حتى وصل في المقطع الخامس الى، وهذا التصاعد في تقديرنا يرمز الى إلحاح الرنين مما يؤدي الى زيادة ضجيجه وبالتالي التشويش وعدم القدرة على سيطرة الانتباه ثم إضعاف الصلة السليمة مع العالم الخارجي وعدم القدرة على التفكير السليم من جانب آخر. ولذلك قال بلند عبارته:

أجيال تتهدم في أذني

بمعنى عدم قدرته على استيعاب خطاب تلك الأجيال. هنا الشاعر يتخطى التاريخ لكي يتهم كل الحقب التاريخية بالعقم وعدم قدرتها على فهم الإشكالية الوجودية الفهم الصحيح حتى هو وذلك الصوت الذي باغته عبر السماعه ولذلك ماتا عبرها وسقطت السماعه مترنحة ويظل السؤال قائما... من نحن.. من نحن. لم يجد " بلند " جوابا على هذا السؤال على ما يبدو.. هذا ما تجلى لنا في قراءتنا لهذه القصيدة.

الهوامش

١. هناك كتب كثيرة في اللغة العربية المترجمة منها والمؤلفة عن الوجودية ولعل كتاب ريجيس جوليفيه والمعنون " المذاهب الوجودية من كيركجورد إلى جان بول سارتر " الذي ترجمه فؤاد كامل وراجعه الدكتور محمد هادي أبو ريدة والصادر عن الدار المصرية للتأليف والترجمة لعام ١٩٦٦ هو احد هذه الكتب المهمة.
٢. الفيروز آبادي، معجم القاموس المحيط ، ٢٠٠٥، ترتيب وتوثيق : خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، ط ١، ص ١٣٨٥.
٣. د. الشراوي، حسن، ١٩٨٧، معجم أَلْفَاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط ١، ص ٢٨٢.
٤. د. الحفني، عبد المنعم، ٢٠٠٣ ، الموسوعة الصوفية، مكتبة مدبولي، القاهرة،

- جمهورية مصر العربية، ط ١، ص ٩٩٩-١٠٠٠.
٥. د. الحفني، عبد المنعم، ١٩٩٩، موسوعة الطب النفسي، مكتبة متبولي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط ٢، ج ٢، ص ١٠٦ - ١٠٩.
٦. ستور، أنطوني، الاعتكاف : عودة إلى الذات، ١٩٩٣، ترجمة : يوسف ميخائيل اسعد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
٧. ستور، المصدر ذاته، ص ٨.
٨. برديائف، نيقولاي، ١٩٦٠، العزلة والمجتمع، ترجمة : فؤاد كامل، مكتبة النهضة المصرية، التصدير وما بعده من صفحات.
٩. على سبيل المثال المرجع المهم عن موضوع الاغتراب ونشأته في الفلسفة الحديثة للباحث ريتشارد شاخت وترجمة : يوسف كامل حسين والصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت في ١٩٨٠ و هناك دراسة جميلة تناولت علاقة العزلة بالأدب بقلم " هيويل د. لويس ". راجعها في الكتاب المعنون " الفلسفة والأدب " : تحرير، أي، فيليبس كريفتنز، وترجمة : ابتسام عباس ومراجعة وتقديم الدكتور عبد الأمير الاعسم والصادر عن دار الشؤون الثقافية ببغداد، العراق، عام ١٩٨٩، ط ١، ص ١٥-٣٣.
- * الحيدري، بلند، ١٩٨٠، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط ٢.

الرحيل وسراب الخلاص

قراءة نفسية لمجموعة (خطوات في الغربة)^١

يعتقد البعض أن الهجرة يمكن ان تكون خلاصاً مما يعانونه في ديارهم. ولكن هذا الاعتقاد لا ينسحب على أولئك الذين لديهم مشكلات مع ذواتهم، أعني لديهم مشكلات شخصية متأصلة في جذور اعماقهم. قد تكون الهجرة حلاً لبعض المشكلات الموضوعية. اما الذاتية فهذا موضوع آخر. من هذه الفكرة سوف ننطلق لقراءة مجموعة الشاعر بلند الحيدري المعنونة "خطوات في الغربة".

وعلى ما يبدو من خلال الربط بين خطابات القصائد بين هذه المجموعة وقصائد المجموعة التي حاولنا القاء الضوء عليها في دراسة سابقة^٢، فأن هناك علاقة تتممية، إذا صح مثل هذه المفردة. أن الحارس المتعب بعد ما غنى اغانيه الحزينة تلك ولم يجد صدى لها في موطنه، ولذلك قرر الرحيل في بلدان الغربة، عله يجد من يمد يد العون له لحل إشكاليته. فتاه في الغربة وذاق مرارتها. نعم قد يجد البعض لغة السوط والسيف والحداء؛ مثلما وجدنا أدونيس وهو يتغنى لعصره الذهبي^٣. الرحيل في هذه الحالات، على الرغم من لا أخلاقيته، في تقديرنا، فإنه وسيلة لا بد منها قد لجأ إليها كثيرون. الذي يرفض فلا يرحل. الرحيل بهذا المعنى إذن العجز بعينه.. هو الهروب بذاته. ما قيمة الرفض من الخارج وأهل الداخل يعانون ما يعانون من عذابات السياط وأهانة الحداء. إذن الذي يرحل فلا مكانة له في الداخل. الذي يقاوم، هو من يقاوم من الداخل وليس من الخارج. هراء

إذن كل انينهم وكل ما يكتبون وكل ما يقولون طالما هم احياء في
الخارج. فليموتوا في الداخل وألا فليس لهم الشرف في الخارج. أنا لا أعني
بلند على وجه التحديد. إذن قد رحل بلند وهناك بدأ ينادي.. يصرخ..
يهتف.. هذا في الصباح. أما في الليل.. فهناك الحانة والعبث والنساء. أليس
هذا هو ما يريدونه.. إذن كل صياحهم وصرائحهم وأنينهم هراء في هراء
!!! لنرى ما هي خطوات غربة بلند. كيف يرى بلند أرضه؟ هذا ما سوف
نجده في قصيدة " واليوم.. أعود " إذ يقول:

في أرضي
الصمت مرير كالبعوض
والفجر يجيء بلا ومض
والليل يمر
ولا يمضي
والناس تتمتم في أرضي
كنا
اثنين
عينان تغوران بعينين
منتظرين
الفجر الفضي
والفجر يجيء بلا ومض
في أرضي
.....

المجموعة، ص ٤٢-٤٧

تلك هي أرضه إذن. لقد وصفها لنا بلند بدقة. ولا أدري أى أرض يقصد؟؟. بلند لا يحدد لنا هوية هذه الأرض. هذا مردود عليه. موقفه موقف معروف للذي يدرس تاريخ العراق والذي يعرف انتماء بلند. المهم هو أنه سئم العيش بها ويئس منها. وغنى لها كثيرا وخاطبها مرارا وصرخ بوجهها زمنا طويلا. ولكن أسفاه فليس هناك من يحرك ساكناً. لاجل عذابه. هذا ما تكشفه لنا عنه هذه القصيدة.

في قصيدته المعنونة " عشرون الف قتيل.. خبر عتيق " يحدثنا بلند عن أحزان أرضه التي انحدر منها سوف يجعل هذه الارض نقطة انطلاق لتعميم احزان العالم. بلند هنا ايضا يناشد امه. هذا الحنين.. بل قل هذا النكوص دلالة على فشل بلند في مواجهة العالم ويتمنى العودة إلى احضان الأم.. يقول بلند:

اماه

يا امي

رصاصه في جنبي المدمى

... لا تبعدني

... لا تبعدني عني

كالكلب ها اني

اموت من اجلك يا امي

لا تبعدني عني

*

اماه

يا امي

هنا... بلا حبي ولا بسمتي
اغور في الطين
اغور في الجرح
اغور لا انت معي
اغور لا شمس معي
ولا الهوى العالق في صبحي
وسوف تنسيني
رغم السنا المطفأ في غرفتي
رغم الغد الفارغ يا امي
فسوف تنسيني

المجموعة، ص ٥ - ١١

هذه إشارة إلى أن بلنذ قطع الأمل بالعودة إلى وطنه. ان الام هي رمز إلى الوطن فإذا كان قد لفظه وطرده، فليس بالبعيد ان تكون الأم هي الأخرى قد نسيته أو في طريقها إلى ذلك. من هنا هذا الشعور بالحزن. لقد اصبح وحيدا. لقد كانت الأم، على ما يبدو اخر ما يخسره. ها هو قد خسره. لقد تخيلها وهي تصلي وتتمتم لتقول مناجية ربها:

رباه

احفظ لي حياتي

انا لا اريد سوى حياتي

المجموعة، ص ٩

لم تفكر الأم إذن بولدها وهو مغترب. ولم تذكر احزانه ولا الطين الذي غار به. لقد فكرت بنفسها ونجاتها فحسب ونسيت بلند وحيدا يشد يدا على يد. يقول بلند:

وحدي انا

ويدي تشد على يدي

...الم فظيع

واكاد اسمع من هناك [إشارة إلى بلده البعيد عنه

ومن هنا [إشارة إلى وجوده في المنفى وليس من وسيلة للاطلاع على

اخبار وطنه وامه سوى المذيع

صوت المذيع

متخشبا

شاءوا له ان لا يحس بما يذيع

المجموعة، ص ١٠-١١

معنى هذا أن بلند خسركل شيء. وأصبح مصابا بمرض فقدان اى الأكتئاب.

ويعزز هذا الأكتئاب وجوده بعيدا عنها... أعني عن امه وبعيدا عن وطنه، وهو بهذا المعنى يكون مصابا بمرض الحنين إلى الوطن Homesickness. الأزمة إذن تفاقمت لديه.. رغم كل هذا، عاش بلند في غربته يحمل بين كفيه احزانه راثيا ايامه، مجترا لياليه منتظرا الفجر الذي لا يأتي. يقول بلند في هذا المعنى:

لن تأتي
لن تشرق الشمس
وفي بيتي
تغور في الموت
أقدام أطفالي بلا صوت
من أين؟
لن تأتي
فسجننا أعمى بلا كوة
ودربنا يوغل في الهوة
ونحن لا حول ولا قوة
لكنكم جئتم وكنا هنا
حكاية عن أمسنا الحر
وموكبا من السننا
في فجرنا الحر

المجموعة، ص ٢٨

من البلاد البعيدة.. رأى بلند رفاقه قد أكملوا المسيرة وهو هنا... أعني في بلاد الغربية لا حول له ولا قوة. أليس هذا شعوراً بالذنب قد اعترى بلند وهو في هذا البلد البعيد لا يحرك ساكناً ومع ذلك فهو قد تجاوز محنة الشعور بالذنب هذه وعاش سعادة مجيء الفجر مع رفاقه، على الرغم من يأسه الواضح من ان الشمس لن تشرق على بيته من جديد. لا يمكنه ان ينسى تلك الليالي التي عاشها مع رفاقه في البلد الأمين. يقول بلند:

جئتم مع الفجر
... وكانت هنا
مجزرة تنمو بلا عذر
وخلف باب السجن
كانت منى تعيش في وهن
وكان للغد
ألف يد تسرق من ذهني
ومن دمي الحر
شوق الليالي السود للفجر

المجموعة، ص ٢٦

تلك إذن هي حال بلند وهو في الداخل أو في الخارج. لقد مزقه الصراع..
دمره الشعور بالذنب. وتأتي امرأة..سلطة.. مخبرات.. رجال شرطة... من
البلاد البعيدة، لتغويه.. لتكشف عن سره.. لتعريه.. لتجعله يترك كل شيء.
ولكنه يصمد ويقاوم ويبقى امينا على السر. يقول بلند:

ادري
ستعود لتحرق لي شعري
ستعود
لتقلع لي ظفري
لن تقتلني
ستشد الحبل ولن تقتلني
ستطيل الليل ولن تقتلني

ستدوس على صدري
ادري
وفمي لن يفرج عن سري
يا للسر
اقطع جفني
اغمس ابهامك في عيني
ففمي لن يفرج عن سري
يا للسر
والسوط سينبح في لحمي
كالسم
سيوغل في جسمي
يا للسر
وستنبش في لوعة صوتي
في موتي
في صمتي المر
ستصيح : اريد..اريد
اريد
والسوط يعيد
وتقول : ستخنته
وستحرقه
يا للجبين
الأذيع السر

أأفشي الأمر
يا للجبين
أأخزي ابني
لا.. لا
والصرخة تشهق في عيني
لا...
لا...

*

وتعود لتحرق لي شعري
ولتقلع لي ظفري
لكن سري
سيظل كنصلك في صدري
رمزين لإنسان حر
يا احمق
في سري عذري
كي اصرخ
كي ابصق
كي اسخر من عبد...
حر

المجموعة، ص ١٢ - ١٥

هذه صورة من صور عذابات بلنـد وهو يعاني إشكالية البعد، إذا صحت هذه العبارة، من محبيه، أيا كانوا... في هذه الأجواء، تنشـط مخيلة بلنـد، في جانبها الحزين هذا، وهو يجول في حانات هذا البلد البعيد، ليلتقي امرأة، يبت إليها بشكواه، وفي نفس الوقت يعيش محنة الخوف من مراقبة الآخر وملاحقته بزي امرأة متخفية.. متقنعة بقناع الحملان.

بلنـد هنا، حائر بين الانسياق إلى حاجاته البيولوجية وضرورة اشباعها وبين الانصياع إلى واجب الالتزام لمفردات الخطاب، ولذلك نراه يتشكك في كل النساء.. حتى نساء الليل، معتبرا اياهن زبونات لعدو الخطاب، ولذلك يمكن القول ان بلنـد يعيش عقدة، ما يمكن تسميته بعقدة التعميم، بمعنى اخر انه يرى ان المرأة عموما هي رمز للخيانة والوشاية.. وان لا وفاء إلا من خلال رفاق الخطاب. وهذا يقودنا إلى الاستنتاج إلى ان لا امرأة حقيقية في حياة بلنـد إلا امه. وفي عنوان، يحمل في طياته بعضا من المفارقة، يسرد لنا بلنـد من خلاله ، عينة من مظاهر عقده هذه..

ففي هذا العنوان ما يوحي بأن بلنـد يعيش هذه العقدة في فترات مبكرة أو قل في فترات الشباب، إذا شئنا الدقة. والعنوان هو "صورة قديمة" ترى إلى فترة تعود نكرى هذه الصورة؟؟ نترك تاريخ هذه الصورة إلى بلنـد نفسه !!! يقول فيها:

كأس

واغنية

وامرأة مربية

ماذا تحاول ان تكون

..... ماذا تحا...

يا للصدى

فعلى مدى عيني تغرق في السكون
خطوات اجيال كئيبة
وعلى يدي
في عرق اسود [رمز إلى ركاب السنين
تغفو سنين
مرت سدى [إشارة واضحة إلى مشاعر الندم والاسف على مسيرته
حلما تجسد في شتائي موقدا
احرقت امسي كله [إشارة اخرى إلى عبثية المسيرة.
فيه
ولم يدفأ غدي [صورة متشائمة للغد وللمستقبل عموماً.
ماذا احاول ان اكون [ضياع لصورة الذات لديه.
.....
وتغور دقاتي الرتيبة [فقدان للاهتمام بالحاضر
.....
لا...
لن اجيبه [مخاطبة سرية للقدر، عودة إلى الامل
يا انت
يا امرأة مريبة [عودة الشكوك إليه
غني
ارقصي
قصي جناح ذبابة كي لا تطير

ولتزحفن على التراب الى المصير
وليهرأ الكون الكبير، كما يشاء
ليهرأ الكون الكون الكبير
بذباة [إشارة الى الذل في المنفى
بجناحها المقصوص
بالقلب الصغير
فأنا

كأنت [الشاعر يشبه نفسه بفتاة الليل الضائعة
بالامس كم درات بنا الايام من بيت
لبيت
بعنا هوى
بعنا رؤى
وكما انتهيت انا... انتهيت
ظلين من ليل
وصمت

*

انحتاج الى دليل لنرسم صورة الذات لدى بلند؟ أليست هذه الصورة
واضحة وجليية تكفيننا لنرسم تلك الصورة؟؟ انها صورة الى احتقار الذات
بل توجيه الاتهام لها. يستمر بلند في رسم تلك الصورة فيقول:

يا انت
يا امرأة مريبة

غني
ارقصي
قصي حكاية الضائعين
لضائعين [هل دار هذا الحوار بين احضان بنت الليل.
ضمي خطايا الآخرين
لآخرين
فأنا...
كأنت
ملقى هنا.. وبكل موتي
كأسا
واغنية
وبعض لفائف وغوى سنين
مطروحة... لعبا كئيبة
تلهو بها امرأة مريبة

*

ان بلند في هذا المقطع، يعيش مفارقة نفسية كبيرة. هو لا يأتمن الى احضان هذه...، على الرغم من انه يتكور بينها. والدليل هو انه كان سريع البوح لهمومه كطفل عندما يرى من بعيد عيني امه أو يشم رائحتها. بلند، هنا منكسر.. مهزوم. انه مثل لفائف ملقاة على طاولة متسخة بأدران الرجال السابقين وبلند هو واحد منهم.. بل إذا شئنا كان الاخير بينهم. يا لتعاسته إذن. كيف كان هذا الرجل الذي قاوم ونادى وهتف ودمر واحتج وكسر وعصا و.. و... واخيرا صار بين نهدي بنت الليل هذه. أليست

هذه مفارقة اخلاقية، كما تزعم مفردات الخطاب وتوهم بها نوايا ابرياء العقل الجمعي؟؟ ياله من مخادع وكذاب ودعي.. ياله من شيطان كبير.. تعالوا ايها الرفاق وانظروا الى هذا المناضل العظيم الذي غنى لكم وهتف من اجلكم ودمر واحتج و.. و.. كيف انه من اجل نزوة شيطان عابره باع كل ما لديه.. جسد بلند تمتع.. ارتاح.. ازاح عنه عبء السنين وركامها.. ولكن ضمير بلند محترق... معذب.. مشتت.. ممزق... منقسم، بين قدسية مفردات الخطاب ومثالياتها وبين ساقى مومس !!! بلند ينتهي الى لا شيء انه، يلتزم صمت الفشل وسكوت الخسارة ومرارة فقدان.

بلند يؤكد لنا هذا الاستنتاج. التكرار يعني التأكيد والتأكيد يعني الاصرار... يقول بلند:
ماذا احاول ان اكون
ماذا... احا...
وتغور دقاتي الرتيبة
لا...
لن اجيبه

المجموعة، ص ١٦ - ٢٠

بلند لن يستمر في الغوص في نهر الغواية. هذا النهر دائم الجريان.. لا ينتهي. لذلك يعلن التوبة. ولكن اي توبة؟ هذا ما تعلنه قصيدتان من قصائد المجموعة القصيدتان تحملان عنواناً لاسم شخص صار رمزا لخيانته الذات أو لخيانته الخطاب.

المعنى واحد. الشخص هو يهوذا. ذلك الرجل الذي باع سيده من اجل ثلاثين من الفضة. هكذا تقول القصة المسيحية عنه. وتضيف هذه القصة

أنه بعد ما باع سيده وقع فريسة الشعور بالذنب فتاب وشنق ظناً منه انه
سيقوم بقيامة سيده. ولكن هيهات له ذلك. فقد مات بعد قيامة سيده وخسر
ما ربحه لص اليمين^٢. هل بلند يعيش نفس المحنة. هل خسر ما خسره
يهودا؟؟؟ لنرى خسارة بلند إذن حين يقول بلند:

يا صغاري

انا ادري ان عاري

قصة تنساب من دار لدار

انا ادري

كلما التف شتاء حول نار

واذا ما شفة مرت بأسم

مثل اسمي

ذكروا اثمي

واثمي خنجر يوغل في قلب صغاري

انا ادري

ان ما لصته كفاي

وما شادت يدي

من قصور لغدي [قصور الفشل والغدر والرذيلة

لم تعد غير شهود لدماري

انا ادري

ان ما كنزت في الليل

ومن ويل بريء

وفقير

من دم اهرق مرضاة شروري

يستحيل اليوم

في النور

شهودا لا نهيارى

*

انا ادري

ان شعبي يأكل الحقد عروقه

كلما ابصر بي الوحش الذي داس حقوقه

كلما ابصر الليل الذي سد طريقه

انا ادري

اي وحش

اي ليل

كنت يا شعبي عليك

انا ادري

كيف القيتك في الدرب [إشارة واضحة الى فعل الخيانة

ولم اترك لديك

غير جوع

ودمار

يا صغاري

اي جدوى لا اعتذاري

بعد ان احرقتم حتى بيت جاري [إشارة الى تضخم شعور الندم لديه
يا صغاري
ان حكم الموت لن يمسخ عاري
عن جبيني
فهنا...
الف قتيل
وهنا الف سجين
وهنا...
الف صغير لم ينل غير سجوني
انا ادري
ان حكم الموت لن يمسخ عاري
فانكروني يا صغاري [الحاجة الى العقاب
واتركوني
اتركوني لعنة تزحف في التاريخ
من نار لنار
علها
تغسل
عاري

المجموعة، ٢١-٢٥

تلك هي مشاعر الذنب لدى بلنـد وتلك هي وخزات ضميره. ذلك الضمير الذي نام فترة ثم استيقظ ليزعج بلنـد ويجعله يتذكر موثيقه وعهوده مع شعبه وخطابه، ثم مع ذاته هذا هو المهم، مع ذاته.. انه لأمر خطير ان يتشبه بلنـد بشخص يهوذا. ترى الى اي حد كان بلنـد موغلاً بالذنب ومتورطاً فيه؟؟؟ ان هذا التشبه هو الذي يمكننا من تحديد ذلك المدى. ولذلك يمكن القول ان ذلك الذنب كان عظيماً جداً لدرجة ان بلنـد قبل بأي عقوبة يفرضها شعبه عليه.

حتى لو كانت على حساب تركه وتهميشه. تمنى بلنـد لو يكون لعنة للتاريخ وعندما يكون كذلك تكون جراحات ضميره قد تعافت واقتربت من الشفاء. لكن اقصى صفة وجهها القدر الى بلنـد هي عتاب حبيبته له. لقد خان، وعلى ما يبدو، حتى العهد مع حبيبته. ما الذي بقي في رصيده من شخوص لكي يسند رأسه عليهم. وتشكو هذه الحبيبة الحزن الذي تسبب به بلنـد. والقصيدة هي سرد لهذه الشكوى. لنسمع تفاصيلها:

وأشرت... أنت

- أنا..!؟

- أجل

وبلا خجل

كنت تصر يدك... أنت

أجل

وأنت

فكأننا لم نبن في أحلامنا بالأمس بيتا

ليضمننا

درباً

وإيماننا
وصمتنا
وكأننا بالأمس لم نقسم
وما شدت يداك على يدي [رمز للعهد وبناء الاحلام
لتنير من أمسي
غدي

*

يا من وقفت تشير... أنت
يا من
يا من وقفت مع العيون القائمت
تشير... أنت
يا من وقفت مع الأصابع آثمت
تصر... أنت... أجل
وأنت
هلا ذكرت بأننا
رغم العذاب يهدنا
رغم القيود تشدنا
رغم الليالي الحالكات تدور في داري
ضنى
رغم الخطى المتنصتات
تلص من بيتي السنى

هلا ذكرت بأننا

لا... لم نقل أبدا :

هنا

بيت عرفتك عرفتك فيه... أنت [إشارة إلى التعارف في الاجتماعات
السرية

أو النضال السري

لا... لم نقل [بلند يتنكر للعهد الذي اقامه معها

ليظل ذاك البيت ي أحلامنا

دربا

وإيماننا

وصمتنا

لا... لم نقل أبدا :

بيت عرفتك فيه... أنت

لنظل في المصباح زيتا [إشارة الى الماضي في التضحية رغم كل شيء

هلا ذكرت

وقد رأيت القيد ينهش من يدي

لينير من أمسي

غدي

هلا خجلت [إي لغة تهكمية وتقريعية هذه !!!!

وقد وقفت مع العيون القائمت

مع الاصابع أثمات

تشير... أنت
وتصر... أنت... أجل
وأنت
لتبيني.. حيا وميتا [إشارة واضحة للغدر والخيانة
لتهدني
دريا
وإيماننا
وبيتا
...
لكنني
- وافرحناه -
ما كنت... أنت

المجموعة، ص ٤٨-٥٢

تعتز هذه الحبيبة، كثيرا، بذاتها لكونها لم تكن مثل بلند الذي خان وباع وترك وهجر و..و..!! هنا الحبيبة تصب جام غضبها ولومها وعتابها على بلند. بلند يذرف الدموع.. يشبك يديه.. عيناه.. يتكيء على حائط الغرفة يتوه في عوالم مختلفة.

كل هذا الكلام وهو مسمر في مكانه.. غارق في ماضيه.. يتصيد أي حجة.. أي دليل.. أي مسوغ.. ولكن لا يجد فيلوز بالصمت.. إلى الأبد!! القصيدة سرد لتاريخ الوفاء... للاحلام... للرؤى.. للامنيات.. للغد المشرق.. ولكن بلند خيب ظنها.. لم يك.. كما ينبغي.. لم يف بالواجب.. لم يصن

العهد.. أهذا هو، كما تقول الحبيبة، الذي هتف وتوعد وواحتج وأنشد للغد
الجميل. ليس هو، تقول الحبيبة، وافرحناه ما كنت... أنت!!!!!! في
خضم هذه الاوجاع يتذكر بلند تاريخه.. وعلى وجه التحديد.. ولده.. يبكيه..
يتمزق قلبه عليه.. فيكتب له رساله. تقول:

سأعود ثانية اليك
لا قبل النور الذي في ناظريك
لتنام بين يديّ صحوةً
راحتك
ستصبح!
عاد ابي الي
حيا
برغم الموت عاد ابي الي
في ناظريه
حكاية
عن الف ايمان وشك
عن الف جرح غائر
كالموت يصمت حين يحكي

*

انا ان رجعت غدا اليك
ان عدت ثانية اليك... فلا تسل
عما لدي

عن غيمة تجتاز هدأة مقلتي

لا..

لا تسل

عما وراء الصمت من زهر وشوك

انا ان سألت

فسوف ابكي

المجموعة، ص ٦٥ - ٦٦

بعد هذا السرد الذي قام به بلند عن عتاب حبيبته له لكونه غدر بها وخان عهدها ولم يصنه. إذن فهذا الولد ليس ثمرة ذلك العهد. نحن لا يهمنا كثيرا من يكون هذا الولد وما هي هويته. ولكن قد يكون رمزا للولد الذي ينتظر. أعني أي ولد كان بلند قد وعده بالغد المشرق. أليس هو الذي هتف.. وصرخ.. وتظاهر..؟؟ عليه ان يفي بالوعد.

لكنه خان العهد مع حبيبته. قد يكون معذورا في هذا الجانب. الحاجات لا ترحم.. لا تعرف لغة اخرى غير لغة الالاح والمطالبة. وهاهو يعيش في بلد غريب. هو الغريب فيه. لا احد يعرف اسراره. لا احد يعرف همومه. قد يقضي وقته في الحانات والمقاهي، وهذا ما سوف نراه لا حقا. وكتاب وجريدة ولفائف تبغ. هذا كل ما في الأمر.

هذه هي حياة المنفيين والمهمشين. لا شيء غير هذا. فكر في الوفاء بوعد فتذكر ولده.. شعبه.. اهله.. كل ما لديه هناك. الرسالة حزينة لا تبشر بأمل.. كل ما فيها هو أن بلندا يريد من الذي يقرؤها ان لا يسأل. لانه لو سئل لبكى.. كم قال الولد لرفاقه ان اباه سوف يأتي يوما وسوف يجلب

معه الهدايا وكل ما يتمناه.. لكن بلنداً خيب ايضاً حلم الولد وبدد كل ما
تمنى.. لقد عاش بلند اليأس بعينه. مرت اربعون سنه وبلند هو هو لم
يحصل على ما يريد.. لم يجن ما قد زرع. يقول بلند في قصيدة ملئها
الحزن على الايام التي عاشها في العمر. يقول:

في الاربعين

وعلى يدي

اكياس احلام تموت بلا غد

لا..

ابعدى

لا تبحتي في ناظري عن موعد

انا من سنين

لو تعلمين

ما عدت غير صدى خطا التشرد

تنساب بي

في الف منطلق حزين

لا...

ابعدى

يا انت.. يا من تحلمين

بالفجر يولد في رؤى زهر ندي

بالياسمين

انا من سنين

لو تعلمين
ايقظت في الاشواك من عطشي المهين
حقدي الكمين
حقد الاماني المائتات على طريق
اسود
لا...
ابعدى
يا انت، يا من تحلمين بالفجر
بالزهر الندي
بالياسمين
انا من سنين
لو تعلمين
غابات احقاد تنام لموعد
قد لا يجيء مع الغد

المجموعة، ٧٦ - ٧٨

هذا هو الذي جناه بلند من اعوامه الاربعين. القصيدة واضحة الابعاد..
جلية المعالم.. هناك حبيبة تنتظره. قد تكون هي.. اعني تلك التي كانت
موضوع قصيدته (يهوذا). ها هو يطلب منها الرحيل لكي لا تتعذب معه
في عذاباتة ولا تنجر الى ما انجر اليه في بلاد المنفى... يطلب منها ان
تكون نقية وبمناى عن كل ما تعرض له وسيتعرض له فيما بعد. يخبرها
ان دربه صعب.. مملوء بالاشواك.. بالعثرات.. بالحاquدين.. الكارهين... انه

الضحية و لا شيء غير ذلك. ففي قصيدته التي تحمل عنوان المجموعة
أعني خطوات في الغربية يصف لنا بلند حاضره ومستقبله، على اعتبار أن
ماضيه كان ذهبيا. يقول في القصيدة:

هذا

أنا

- ملقى - هناك حقيبتان

وخطى تجوس على رصيف لا يعود الى مكان

من ألف ميناء أتيت

ولألف ميناء أصار

وبناظري ألف انتظار

لا...

ما انتهيت

لا... ما انتهيت فلم تنزل

حبلى كرومك يا طريق ولم تنزل

عطشى الدنان

وأنا أخاف

أخاف أن تصحو ليالي الصموتات

الحزان

فإذا الحياة

كما تقول لنا الحياة :

يد تلوح في رصيف لا يعود الى مكان

*

لا...

ما انتهيت

فوراء كل ليالي هذي الأرض لي حب

وبيت

ويظل لي حب وبيت

وبرغم كل سكونها القلق الممض

وبرغم ما في الجرح من حقد

وبغض

سيظل لي حب وبيت

وقد يعود بي الزمان

*

لو عاد بي

لو ضم صحو سمائي الزرقاء هدي

أترى سيخفق لي بذاك البيت

قلب

أترى سيذكر ابن ذاك الأمس

حب

أترى ستبسم مقلتان

أم تسخران

وتسألان

- أو ما انتهيت

ماذا تريد ولم أتيت
اني أرى في ناظريك حكاية عن ألف ميت
وستصرخان :
لا تقربوه ففي يديه... غداً
سينتحر الصباح فلا طريق ولا سنى
لا...

اطردوه فما بخطوته لنا
غيم لتخضر المنى
وستعبران

*

هذا.. أنا
- ملقى - هناك... حقيبتان
وإذا الحياة
كما تقول الحياة :
يد تلوح في رصيف لا يعود الى مكان

المجموعة، ص ٩٦-١٠٠

ما عدا القصائد المهداة الى شخوص او احداث أو ذكريات، فأن هذه القصيدة تسجل خاتمة الرحلة بالنسبة الى الشاعر. وبالتحديد خاتمة بلند في عهد هذه المجموعة. وهي خاتمة مأساوية الى حد ما.. بل الى حد كبير. بلند هنا بلا وجهة.. بلا مكان محدد يتجه اليه.. هو مسافر ومسافر لا غير. حتى هو بلا هويه. مجرد رجل يحمل حقيبتين!! ربما معه دفتر للمذكرات

وبعض قصائده المخطوطة التي يقرأها بين الحين والآخر. هل يعدل من مضمونها أو عناوينها أو أسلوبها لكي يرضى بها الحاقدين من أعدائه، عندما يعود، يوما ما، وهل سيعود، أم يبقى زميلا ابديا للحقبتين وللرصيف ولعربة القطار القديمة؟. لا ندري أيا من هذه البدائل كانت نصيبا لبلند؟؟؟؟.

الهوامش:

١. الحيدري، بلند، ١٩٧٤، خطوات في الغربية، دار العودة، بيروت، لبنان.
 ٢. بهنام، شوقي يوسف، ٢٠٠٦، من كوة الزنزانة: قراءة نفسية لمجموعة اغاني الحارس المتعب للشاعر بلند الحيدري.
- * جامعة الموصل

من كوة الزنانة

قراءة نفسية لجموعة أغاني الحارس المتعب

يصطدم الدارس بعنوان مجموعة الشاعر بلند الحيدري المعنونة " أغاني الحارس المتعب"، إذ يوحي هذا العنوان.. إلى ان الحارس له أحزانه وأنه ليس ساديا، كما يعتقد، يستمتع بعذاب الآخر.. و لا ندري هل كان بلند حارسا يراقب مسجونيه.. ويرى أحزانهم ومتاعبهم. فكان التعاطف معهم، وعلى هذا اساس هذا التعاطف برزت لديه تلك الأحزان المتمثلة بأغاني المجموعة..؟ لا يمكن أن يكون بلند داخل زنزانه انفرادية و ينتظر حكم الإعدام المنفذ ضده، وفي نفس الوقت يغني أغاني حارسه المتعب.. أنها أغاني الحارس الذي يمشي خارج قضبان الزنزانه وقد يلفه الأسى والحزن على من في الزنزانه. هذا يعني، في تقديرنا، على الأقل، أن بلند لم يكن دقيقا في وضع حل لهذه الإشكالية.. أعني هل هو السجان أم السجين؟؟ ويفترض، على أساس هذا الإطار أن يكون سجيننا من أجل قضية... في المقابل هناك تأويل يتحمله عنوان هذه المجموعة، وهو أن بلند اعد نفسه حارسا للعالم.. أعني رقيبا عليه. وفي هذا المعنى تكون أغانيه ناتجة من أن رقابته لم تؤد فعلها المطلوب. وإذن فهو رقيب أو حارس فاشل.. وحزن أغانيه إنما هو اجترار لذلك الفشل. إذن العالم انفلت من يدي بلند.. وأصبح، عبارة عن فوضى عمياء لا تقودها غير رغبة هوجاء. وهذا سبب أحزان بلند.. سنجد، عندما نقرأ قصائد المجموعة، أن هذه القصائد واضحة الخطاب.. لا تحتاج إلى فك رموز أو تأويل عبارات. في قصائد المجموعة ينطلق الشاعر من تصور محدد للعالم.. وعلى أساس هذا التصور يريد ان

يبني عالماً جديداً خالياً من تلك الفوضى التي تسوده وتملاً أجواءه. ولا يخفى، انطلاقاً من بعض المفردات، أن الخطاب الذي يتبناه بلند عن العالم، هو الخطاب الماركسي.. الذي يرمي إلى بناء العالم أو المجتمع اللاتبقي واللاقومي أو الأممي المنشود.. وعلى أساس هذا التصور ينطلق بلند في هجاء العالم... مندداً به.. ليصب جام غضبه عليه.. تلك هي الدلالات الأساسية لأغاني هذا الحارس المتعب.. أن تبني تصور معين عن العالم والأشياء في فترة عمرية متأخرة إنما ينتج من تداعيات التنشئة الأسرية الأولى.. وبهذا المعنى يكون مضمون الخطاب المتبني، حيناً لتلك التداعيات.. فالطفل المحروم أو الذي يعاني من أزمات اقتصادية شديدة؛ إذا صادف خطاباً يقدم له حلاً لتلك الأزمات، عندها يكون هذا الخطاب هو الخطاب المتبني.. وهكذا مع سائر أنواع التداعيات التي تظهر في فترة التنشئة الأولى من حياة الطفل. وهذا ما سوف ينطبق، على الأقل في تقديرنا، في حالة شاعرنا بلند الحيدري.. إذن فلننطلق من تداعيات التنشئة الأسرية الأولى للشاعر. وأول نموذج لهذه التداعيات نجده عند بلند في قصيدته "الطرد" يقول فيها:

ولدت خلف الباب

كبرت،

خلف الباب

وخلف هذا الباب

كم مرة صار الهوى في جسدي

مخالبا وناب

المجموعة، ص ٩٥

السؤال عن الأصول، كما توحى مفردة الولادة، متروك للشاعر !!!
ولننطلق من رمزية المفردة لا من بعدها المباشر، ولنعتبر عبارة خلف
الباب إشارة إلى مشاعر الإهمال لدى الشاعر.

ويبدو من السياق أن هذه المشاعر كانت مزمنة وعميقة ومتأصلة لديه...
حتى أنه لم يذق طعماً للهوى غير الصورة التي يصفها لنا. فضلاً عن على
كونه قد ولد خلف الباب فهو لم يتلق غير المخلب والناب.

وهذه إشارة واضحة إلى مفهوم الشاعر عن قدره البائس والشقي معاً. لم
يكتف الشاعر بالتعبير عن هذا الحرمان من التواصل مع العالم بعبارة "
خلف الباب" بل زاد هذا الحرمان توكيداً من خلال عبارته "كبرت خلف
الباب". هذا يعني أن القطاع الأكبر من طفولة بلند نشأ على هذا الأساس،
أعني أنه مقذوف، إذا استخدمنا مفردة "هيدجر"، لا في العالم بل خارج
العالم.

إن بلنداً هنا دقيق في التعبير عن حالة القذف خارج العالم هذه، وبأنه
ولد وكبر خلف الباب.

ويواصل الشاعر في سرد تفاصيل ذلك القذف خارج العالم والانكفاء
على الذات. يقول الشاعر:

كم مرة يا دمي المسفوح للتراب

يا أيها الحاضر في الغياب

كنت أنا القاتل

والمقتول، كنت الجرح والذباب

كم مرة

أوصدت دوني الباب

ونمت لا احلم

لا أسأل

لا ابحث عن جواب

المجموعة، ص ٩٥-٩٦

وإذا كان بلند في المقطع الأول مقذوفاً قذفاً إجبارياً.. فإنه هنا، في هذا المقطع، يغير ادوار اللعبة، فيصبح هو القاذف وليس المقذوف... أن سلوكه، هنا، هو رد فعل.. أعني أنه قذف معاكس.. هنا برزت مشاعر الأنا لديه ساطعة الأضواء على الرغم من صور السلبية الواضحة.. إنه ينام ولا يحلم.. مفارقة بايولوجية. النوم.. النوم العميق ترافقه الأحلام.. إذن بلند لم يك نائماً بل كان متناوماً. إشارة إلى رغبة في أن لا يرى العالم. هولن يسأل.. لأنه يعرف أن لا جدوى من سؤاله لأن لا جواب له.. إن الأنا عند بلند أدركت ان العالم لا يستحق غير القذف بل ان يتقياً كل الصور التي رسمها عنه في مخيلته. ان في ذلك القى نقاء للمخيلة. وإذا كان بلند لم يرى في العالم سوى المخلب والنباب، وجسده اصبح بين هذا الخال وذاك الناب.. فأن من الضروري له أن يقذف العالم. إلى هنا وبلند يحاور ذاته.. المخلب وهذا الحوار، تقليب لصفحات الماضي. أنه ماضٍ قاتم.. مظلم.. لا هوى فيه.. لكن في المقطع التالي يتوجه بلند بالخطاب إلى آخر.. وبالتحديد إلى امرأة.. سنترك هوية هذا الآخر للشاعر نفسه.. ولنرى ماذا قال لها:

لأنني... [من حقنا أن نتساءل لأنك ماذا؟

لا تقلقي

سترجع الذئاب

سترجع الذئاب

ومرة ثانية

ثالثة

رابعة

سيولد الإنسان خلف الباب

وإننا... [من حقنا ايضاً أن نقول أنكم ماذا؟

لا تقلقي

نظل في الوليمة الصغيرة الحضور في الغياب

المجموعة، ص ٩٧ - ٩٨

بلند، في قوله لأنني.. وبعد ذلك لأننا، متحفظ في الكشف عن هويته..
أهي سياسية.. قومية.. دينية.. بلند هنا خائف من الانكشاف. كان
الماضي، أعني ماضي بلند.. ناباً ومخلباً.. وها هو الحاضر.. بل المستقبل
كله ذئاب وذئاب.. إن بلند يائس من كل أبعاد الزمان؛ الماضي.. الحاضر..
المستقبل.. إن بلنداً يعمم هذا اليأس.. ليس وحده هو اليائس.. بين المخلب
والناب.. بل الجميع يحيون تحت وطأة هذا اليأس. وتظهر ملامح اليأس هذا
في ضياع بلند، هو وهذا الآخر.. وكلنا معه.. بين الحضور والغياب.. حضور
الأنا وغيابها معا.. في تلك الوليمة الصغيرة.. صورة لمسرح العالم... ذلك
نموذج واحد لتداعيات ذاكرة بلند.. في قصيدة أخرى يعود بلند بأدراج
ذاكرته الى الوراء وهي قصيدة " الأمس المطعوناً " والتي يخاطب فيها
جده. الجد ليس، بالضرورة، جدا بيولوجيا، قد يكون رمزا لتاريخ الانتماء..
أعني التراث.. أو قد يكون الخطاب المتبنى.. المحتذى.. وقد يكون الإنسان
النموذج. وقد يكون الجد البيولوجي... المهم أن بلند يتوجه إليه بخطاب..
برسالة.. يبت له شكواه، على وجه التحديد يتمنى أن يكون الإنسان
النموذج.. لنرى في هذه القصيدة والقصيدة السابقة لها والمعنونة الذي

”قل لي.. هل لي..“ ما هو مضمون الخطاب الي يتوجه به إلى جده. لنقف عند
الخطاب الأول.. أعني قصيدة ” الأمس المطعونا “. يقول بلند:

يا جدي

قل لي

هل لي أن أبعث في أمسك

أن اولد ثانية في فرحة عرسك

في حلم أبي المتنسك.. هل

أن أولد.. لا جرحا [عودة إلى صورة الذات المنجرحه لديه.

لا سكيننا

لا سجننا.. لا سجاننا.. لا مسجوننا

فأنا يا جدي

ما زلت براءتك.. كل براءتك

في الوعد والعهد

قل.. لي

هل.. لي

المجموعة، ص ١٢١-١٢٢

تلك إذن هي امنية بلند.. أنه، هنا، يعيش أو يتمنى ذلك، امجاد عصر الجد
الأكبر.. الأعظم.. الأبهي.... بلند، هنا، منسلخ عن الواقع. أن هذه القصيدة
هي حلم يقظة جميل.. أنها رغبة في الرجوع إلى الأصول.. فهو يدير ظهره
للعالم.. لأضوائه.. لبريقه.. ويتوجه إلى جده.. بلند هنا يرسم صورة لأبيه.
الأب المتنسك.. الزاهد في الدنيا.. الصوفي فيها الذي يدير ظهره لها. من

الممكن أن تكون هناك صور مشتركة وانطباعات متماثلة بين بلند وأبيه
عن العالم. هذا يعني أن المحتمل جدا أن يكون بلند قد رسم صورته عن
العالم انطلاقا من صورة أبيه عنه. ويكرر بلند الصورة نفسها.. أعني رغبته
وظموحه في قصيدة " قل لي.. هل لي ". يقول:

طوبى لك،

قد مت ولم تك ملونا [إشارة إلى مصداقية الانتماء والرسالة

طوبى لك،

قد مت ولم تك جرحا أو سكيننا

طوبى لك

قد مت وما كنت السجنان ولا المسجوننا

فأنا يا جدي

سأموت غدا في ألف غد

ويدي

لن تحمل إلا رقمي المطعوننا

إلا شرفي المطعوننا

*

انت غرست الوعد

وقلت: صن العهد

وإذا مت، رحلت ولم تك ملعونا

لم تك سجانا أو مسجوننا

أما الوعد،

فقد صار بي الجرح وصرت به السكيننا

أما العهد فقد عرفته مناحات الساحات الثكلي

في بلدي

ورآه غدي

مشنقة، ويدا تتدلى كل مساء

وبغيا ما زالت تنتظر الزناء

يا جدي

يا كل براءات الوعد،

بأن لا تصبح جرحا أو سكيننا

قل لي..

كبف غدت في جيل النقمة

كل براءتك تهمة

وغدوت بك الرقم المطعوننا

الشرف المطعوننا

المجموعة، ص ١١٧ - ١٢٢

تلك إذن رسالة بلند إلى جده. وذلك هو خطابه.. تفدُ معاناة بلند، هنا، لم تغدو معاناة شخصية أو فردية، بل اصبحت معاناة جمعية. بلند هنا إذن هو صوت الجماعة.. عهد الجد. أليس الرقم والشرف المطعون. لكن ثقة بلند في عهد جده؛ كبيرة وعالية. وهذه صورة لتطور مفهوم الذات لدى بلند، المولود الذي كبر خلف الباب. إنه الآن صندل محترق ومبخرة.. يقول في قصيدة "بين مسافتين":

الريح لن تخيفنا

ان اعولت
أو ولولت مزمجرة
والليل خلف دارنا المسكرة
يظل أرضا مقمرة
ما دام لي عبر دروب امسي المبعثرة
مسافة تسألني عن موعد
وموعد يمتد في ألف غد
ما دام لي ،
في عرق في يدي المسمرة
حكاية لم تولد
ولم ازل في عتمها المؤبد
احلم أن اصير بعض صندل
محترق
ومبخرة

المجموعة، ص ١١٥ - ١١٦

ذلك هو ما يريد أن يكونه بلند.. إن بلندا، هنا، بعد ما قذف العالم، عاد إلى احضان الانتماء وأذرعه.. ليكون مبخرة وصندلا في الهامش ان سعادتته هنا في هذه الأحضان. وهذه الرغبة في العيش فيها إنما هي تعويض لقذف العالم له وركنه خلف الباب.. لا يكتفي بلند في البقاء في دفء أحضان الأنتماء هذه وإنما كانت هذه الرغبة، على ما يبدو، عابرة.. أو قل حلقة صغيرة ضمن سلسلة احلامه إن بلندا ينطلق من احضان الأنتماء إلى

احضان الخطاب الذي يتبناه من خلال صون عهد الجد... و لاجابة بنا،
إلى القول، ان بلند يتبنى الخطاب الماركسي في بناء المجتمع اللاطقي
المنشود. لأن هذا الخطاب كان الموزجاً للكثيرين من الشعراء من جيل بلند.
ذلك هو ما تجسده قصيدته " اقراص النوم الى مخاطب فيها امه:

قف واقراً

لا تعبر

قف... احذر

....

ماذا في صحف اليوم

اعلان باللون الأحمر

خذ قرصا للنوم

خذ قرصا

قرصا للنوم

... لن اقرأ

... لن احذر

.....

المجموعة، ص ١٥ - ٢٤

والقصيدة كلها تدور عن علاقة بلند الحميمة مع الأم، والشكوى من
فوضوية العالم واضطرابه. انها شكوى من شخص يتبنى خطاباً محدد
المعالم، كما قلنا ذلك. قصائد المجموعة كلها تتدور على هذا المحور. أعني
تجسيدا لمعالم الخطاب المتبنى في فترة الشباب، بعد طفولة معيشة خلف

الباب. وعلى الرغم من بعض العلامات المشرقة في خطاب المجموعة، فإنه
يئس من ذاته ومن صبره.. وبدلاً من أن يكون حارساً للعالم ورقياً عليه..
أصبح هو السجين الذي ينتظر نوم حارسه، علّه يجد فرصة للهروب من
زنزانة الحياة التي تحيطه من كل جانب. ذلك هو فحوى الحوار الذي دار
بينه وبين سجانهِ الأكبر.. قدره المعذب. يقول بلند في قصيدة " حوار في
المنعطف ":

ألم تنم... يا الحارس الحزين

متى تنامُ

يا أيها الساهر في مصباحنا من ألف عام

يا أيها المصلوب بين فتحتي كفيه من سنين

ألا تنام

للمرة العشرين.. أريد أن أنام

أسقط في النوم ولا أنام

للمرة الخمسين

سقطت في النوم ولم أنام

فالنوم عند الحارس الحزين

يظل مثل حافة السكين

أخاف أن أنام

أخاف أن أفيق في الأحلام

ليحرقوا روما.. ليحرقوا برلين

ليسرقوا السور من الصين

عليك أن تنام

آن لهذا الحارس الحزين
أن يتكي للحظة... ينام
أنام... ولم تزل تحرق كل لحظة برلين
يسرق كل ساعة سور من الصين
يولد بين لمحة ولمحة تنين
أخاف أن أنام
فالنوم عند الحارس الحزين
يظل مثل حافة السكين

المجموع، ١٢٣-١٢٥

إن بلندا في هذا الحوار قد خسر المعركة وعلن عن قلقه. فالنوم، الحارس
مرة.. السجين مرة أخرى.. مثل حافة السكين.. ولذلك فإن زفرات القلق لديه
انطلقت من كوة زنزاته.

الهوامش:

الحيدري، بلندا، ١٩٧١، اغاني الحارس المتعب، دار الآداب، بيروت، لبنان.

حوار مع العدم قراءة نفسية لقصيدة "سأم"

اللجوء الى قوى الكون دالة على وصول الضعف الإنساني مداه الأقصى. والعلاقة بينهما علاقة طردية فكلما زاد الضعف ازداد اللجوء إليها توسلا وتقربا. ونحن نعلم ان الله هو رمز لهذه القوى على اعتبار وضعته الأنساق الدينية. ولعل تجربة " النبي أيوب " تعد نموذجا لهذه الصورة، كما سبقتها شخصيات أخرى أطلق عليها الدارسون " البار المتألم " سميت بذات الاسم وعرفتها الحضارات العراقية والمصرية القديمة لأنها عانت ما عاناه نبينا " أيوب " مثل حوار اليأس مع نفسه في مصر ما بين (٢٢٠٠ - ٢٠٠٠) والحكيم ايبو في بلاد أور والصلاة المرفوعة إلى الإله " مردوخ " في بلاد ما بين النهرين في القرن الثالث عشر ق.م.^١

وشاعرنا " بلند " سوف يعيش ذات اللجوء ولكن بطريقة معاكسة. فبدلا من اللجوء الى الله لطلب العون والمساعدة، لجأ "بلند" إلى تلك القوى المظلمة التي تقابل قوى الخير والنور في منظور الأنساق الدينية، وهو يحدد هذه القوى بـ " طيوف الفناء ".

والمفروض ان يرافق الفناء.. الظلمة والعدم والعتمة وكل ما يرمز أو يعبر عنها. لقد قاد السأم شاعرنا الى هذا اللجوء. ويمكن تسميته، وانطلاقا من تعبير " بلند " نفسه " سأم الوجود ". لنحاول إذن الدخول في ثنايا القصيدة للتعرف على دواعي لجوء شاعرنا إلى تلك القوى البغيضة... قوى الفناء.

يقول " بلند " :

يا طيوف الفناء هذي حياتي
دمريها
فقد سئمت الوجود !
بد لي النور
بالظلام
ودوسي
تحت رجلك عمري المكدودا
قد سئمت الحياة أطلال صمت
ودموعا
ينسجن حولي الشقاء
وركاما من الهموم الجواثي
فوق قلبي
تهده اعياء

الديوان، ص ١٢٧ - ١٢٨

ذلك إذن هي الصورة الأولى لشكوى الشاعر وقد وجهها الى تلك القوى.
نحن نجد من وجهة نظر نفسية، هنا، صورة لاكتئاب شديد تفوح منه روائح
لميول انتحارية صبها الشاعر في هذه القصيدة.
ولا ندري هل جرب " بلند " مرة ان يترجم هذه الميول الى محاولة فعلية
للانتحار نتيجة ذلك السأم العميق من الوجود. فلجأ الى قوى العدم مطالباً

إياها بتدمير حياته. ونحن لا نريد ان نحاسب الشاعر على استخدامه لمفردات تقترب من الاستخدام الشائع لها. هذا جانب أسلوبى لا علاقة لنا به. نحن ننشد الدلالة التي تقف خلف المفردة. طيوف الفناء هي بمعنى آخر عجلة الزمن التي لا تعرف الوقوف وتسحق كل ما أمامها بلا هوادة. هنا الشاعر هو الذي يبادر بأن يكون أمام هذه العجلة الخرساء. لنتخيل حوارا مع شخص اخرس. كيف يكون هذا الحوار.. انه حوار معطل لا يؤدي الى غرض.. حوار عقيم.. هكذا هو حوار مع طيوف الفناء.

ومن المؤكد أنها لم تك مصغية له عندما دعاها. هل الحوار داست تلك العجلة بالفعل عمره المكدود. من المؤكد لا. لأنه استمر في الدعاء والشكوى وصب اللوم على ذاته وعلى الوجود في وقت واحد.

بعد كتابة هذه القصيدة. رائحة الحزن والهم والقنوط واليأس هي التي تفوح في هذا المقطع وإذا كانت أحزان "بلند" بهذا القدر فله الحق كله ان يكون على هذا الحال. لنقرأ المقطع التالي:

قد صحبنا الزمان حتى...

مللنا

وجرعنا من السنين الكفاية

فاسدل الستر يا فناء

ومزق

قارئ الأمس والهوى

والرواية

الديوان، ص ١٢٨

هنا ينتقل الشاعر الى الزمان. والواقع ان "بلنداً" يعدّ ان الفناء أقوى من الزمان. الفناء خاتمة المطاف في حين في الزمان لا يزال الموجود يعانق الوجود ما دام موجوداً. وقد عبر "بلند" عن هذه الصورة بعبارة:

قد صحبنا الزمان حتى

مللنا

وجرعنا من السنين الكفاية

لقد مل "بلند" الزمان إذن وجرع من السنين ما يكفي فتعال الآن يا فناء وأسدل الستار ومزق و... و... هنا "بلند" لا يريد الفناء الذاتي فقط. اعني انه لا يطلب الفناء لوجوده فقط. بل يريد الفناء العام.. الكلي.. المطلق.. وكأنني به يردد عبارة الفيلسوف الألماني الكبير "لا يبتنز" "لماذا كان وجود ولم يكن بالأولى ثمة عدم" لقد عاش الشاعر هذا الحلم اللايبنتيزي، إذا صح التعبير، أو تمناه. لكن هذا الجو القاتم الملبد بالغيوم الذي يسير فيه "بلند" لا يخلو من لحظات فرح أو اتكاء على من يقبله.

سوف يغدو هذا القبول بمثابة عزاء للشاعر في هذا الدرب العسير.. الشاق... الطويل... المر.. فيخفف من أهوال الزمان وضربات القدر عليه. لنرى كيف يصف لنا الشاعر هذه اللحظات التي باتت في عداد الذكريات. يقول الشاعر:

كنت بالأمس إن بكيت

تمشت

فوق جفني كفها بحنان

ولكم بالشفاه سلّت دموعي

لتروي جناها من جناني

الديوان، ص ١٢٩

إنّ ليس " بلند " غريباً كل الغربة فهو لا يعيش متوحداً في غابة سوداء
أو على قمة جبل شامخ في كوخ مهجور. على الرغم من وجود هذه الصور
في شعره. ولكنه ها هنا يعيش بين يدي امرأة تضم بها صلته الحمقاء.
فلماذا يحزن إنن؟ هذا السؤال سوف يجيب عليه الشاعر في مقطع تال.
يقول الشاعر:

كم رتينا على شواطئ حلم
نتغنى براءعات الأمانى
فرأيت الحياة أطياف حب
حالمات
سماؤها عينان

الديوان، ص ١٢٩

لا يزال " بلند " في بحبوحة الحب يسرد تاريخه معها ورأى الحياة أو
الوجود أطياف حب. إنن لم السأم من الوجود واللجوء إلى قوى الفناء لكي
تنشله من عذاب هذا الزمان؟.. ولكنه يسير مثل قطار لا يعرف الى أين
يمضي؟. نعم لا يزال في هذا المقطع والمقطع الذي يليه يعيش هذه
البحبوحة. يقول " بلند " :
وإذا ما الزمان لملم أفقي

أفسحت بين جفنها
لي زمانا وأراقت من ناظرين سماء
كم تنقلت بينها نشوانا

الديوان ص، ١٢٩-١٣٠

لقد اختبر "بلند" ضغوط الزمان وذلك من خلال عبارته:
وإذا ما الزمان لملم أفقي

هذه العبارة علامة على الضغوط التي يمارسها الزمان على الشاعر.
ولكن من خلال جفنها كان الشاعر يقاوم ويواجه تلك الضغوط.
لقد عبر الشاعر عن تلك الإجراءات التي كان يمارسها عندما كان الزمان
يللم أفقه ويطوقه بين ذراعيه ويغلق كل منافذ الحياة أمامه من خلال
التنقل بين جفونها "نشوان" .. فجأة ينقلنا الشاعر الى صميم محنته.
لقد أمست كل تلك الخبرات السعيدة والمواقف المبهجة والراقصة مجرد
ذكريات يجترها الشاعر قرب مدفأته العتيقة وهو يتأمل الدخان المتصاعد
من أخشابها المحترقة. وهو يصف لنا "بلند" تلك الذكريات. قائلاً:

أين ذاك الصباح

لا شيء منه

غير ذكرى تزيد قلبي حزنا

ونشيح

مغلف ببقايا من فؤاد يذوب يأساً

ويفنى

الديوان، ص ١٣٠

إذن لم تكن كل تلك اللحظات السعيدة والمواقف التي خبرها الشاعر غير
ذكريات عفا عليها الزمن.

إذن يكن الشاعر من الوجود سأمًا وجوديا بالمعنى الدقيق للمفردة. كان
سأمه نتيجة فشله في إقامة علاقة صحيحة مع المرأة، ثم عمم هذا السأم
على كل نواحي الوجود.. على الأقل في هذا النص الذي بين أيدينا. لنرى
كيف يرى الشاعر الحياة وهو يعيش أزمة الإحباط والخداع. يقول:

يا طيوف الفناء

مرّي سريعاً

قد خبرت الحياة في كل دور

فعرفت الهدوء

في الموت يحيا

ومهاوي الرجاء

أرجاء قبر

الديوان، ص ١٣٠ - ١٣١

تلك هي صورة الفناء عند " بلند " إذن. هي صورة قاتمة فالشاعر يعمم
تلك الصورة على كل مراحل حياته. لا فرق بين طفولته... صباه... شبابه..

رجولته.. خريف عمره.. شيخوخته. كل تلك المراحل خبرها الشاعر ولم يذق
في أية واحدة منها طعم الهدوء الا في الموت.. فهو هناك يحيا.. ولم يعرف
مهاوي الرجاء الا في أرجاء القبر.. ترى هل خبر حقا شاعرنا " بلند " كل
ذلك وهو في القبر؟؟؟؟.

الهوامش:

١. اونو، جوزيف، وآخرين، ٢٠٠٤، قراءة في العهد القديم، تعريب: الأب يبوس عفاص،
منشورات مركز الدراسات الكتابية، الموصل، العراق، ج٢، ص ١٥٢-١٥٤.

من الأعماق

قراءة نفسية لقصيدة "أنت مدان.. يا هذا"

ما أجمل التعبير عندما يكون نابعا من الأعماق ويعبر عن أحساس صادق من غير حاجة إلى زخرفة أو لغة مصطنعة سرعان ما تكشف عن زيفها لأول قراءة لها. هذا ما نجده في قصيدة "بلند الحيدري" التي تتمحور عليها الأفكار التي سنحاول إدراجها في هذه السطور. و"بلند" لا يلجأ إلى ابتكار لغة خاصة به للتعبير عن معاناته، ونقولها بصراحة، لأننا واجدون ان هذا الشاعر لا يكتب من اجل ان يكتب.. بل انه يكتب ليقول.. ليخاطب.. ليعبر.. وباختصار لينقل خبراته الجوانية إلى الذي يستطيع ان يفهم هذه الخبرات.. اما الذي لا يريد ان يفهم فلا شأن ل"بلند" به. ومن البدء نقول أن الضمير الذي ينطلق منه عنوان القصيدة هو ضمير "الأنا الأعلى" عند الشاعر. أنه صوت تقريع ولوم ودعوة للكف عن السير وفق غي الشاعر إذا صح التعبير. "كف عن غيك يا هذا ولا تتماذى فيه.. انت لست غير مدان" هذا تأويل من عنديتنا للبعد الجواني لمضمون خطاب هذه الأنا التي ما انفكت تلاحق الشاعر.. كما نرى من خلال قراءتنا لمقاطع القصيدة، مطالبة إياه - على ما يبدو لنا - بالعودة إلى معايير الشاعر والتي يبدو انه انسلخ منها. وعلى اثر هذا الإلحاح من أوامر هذه الأنا.. الضابطة.. الحارسة.. المزعجة المقرفة معا، كانت هذه الكلمات التي ضمنها "بلند" في نصه هذا والتي تعد تخريجا انفعاليا acting-out إذا استخدمنا مصطلحات التحليل النفسي وقد لا يكون هذا السلوك مطابقا للمصطلح

بحصر المعنى. ولو كان " بلند مستلقيا على أريكة محلل نفسي لما كان
اصدق من هذه القصيدة. لنقرأ القصيدة معا مقطعا تلو الآخر ملاحقين
فقراتها صائدين زلاتها وهفواتها إذا كان ذلك بالإمكان. يقول بلند:

... وخرجت الليلة

كانت في جيبى عشر هويات تسمح لي

ان اخرج هذه الليلة

اسمي... بلند بن أكرم

وأنا من عائلة معروفة

لم أقتل أحدا

لم أسرق أحدا

وبجيبى عشر هويات تشهد لي

فلماذا لا اخرج هذه الليلة

الأعمال الكاملة، ص ٦٣٨-١٦٣٩

ان عملية خروج " بلند " هذه الليلة على وجه التحديد، تمثل، في تقديرنا،
تحديا بحد ذاته. ويبدو ان ثمة أقاويل قد انتشرت أو أشيعت حول او عن
شاعرنا. كنا قد اشرنا في دراسة سابقة الى مجموعته الموسومة أغاني
الحارس المتعب "إلى أن بلندا كان قد اخبرنا بأنه " ولد وعاش خلف
الباب "٢. وهو كثيرا ما يردد هذه الفكرة بعبارة مختلفة لكنها كلها تدور
حول التهميش الشخصاني الذي رافقه، على ما يبدو، مدة طويلة منذ ان
اصطدم وعي الشاعر بالوجود. ويبدو انه قبل هذه الليلة التي قرر الخروج
فيها، كان منكفئا على ذاته، ملازماً لكوخه الرمزي... غرفته في احد

الفنادق المتواضعة أو ما شاكل. ولا نريد التعليق على سايكولوجية مثل هذا النمط من الوجود. خروجه إذن هو التحدي لتغير هذا النمط من الوجود و لتسوية الحساب مع الآخر. وقد تجلت عملية التسوية هذه في شكل إشهار سيف تاريخ الأنا بوجه هذا الآخر. ان هذا التاريخ هو السرد الذاتي الذي اففتح "بلند" قصيدته به. فهو تاريخ ناصع البياض.. لا تشوبه شائبة ما. فهو ابن الحسب والنسب. وذو سلوك نموذجي مع الآخر.. هو لم يقتل احداً.. ولم يسرق أحداً. فيده إذن لم تتل أحداً. فلم تسجل الأيام ما يمكن ان يكون سبة عليه. و لا ادري، هل القيم الأخلاقية كلها عند بلند يمكن ان تبدأ بالقتل والسرقة أو ان تختزل من خلالهما؟ وإذا كان الجواب "نعم" فأن فهم بلنداً للقيم الخلقية هو فهم قاصر وفهم غير سليم. وإذا كان الجواب "بلا" فأن بلند لم يكن صادقاً ، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلا يعقل ان يكون بلند خالياً من كل الذنوب ؛ كبيرها وصغيرها وعلى مر تاريخه الشخصي بشكل أو بآخر ولا يذكر غير السرقة والقتل معياراً للسلوك الخلقى السليم والنموذجي؟. هنا انتفاخ للذات.. هنا نرجسية لبنائه الخلقى.. هنا شعور بالتفوق والتمايز. من هنا هذا الحسد من "بلند" .. من هنا هذه الغيرة من بلند. و يترجم بلند هذه الخصائص والسمات بامتلاكه "عشر هويات". ما معنى هذا.. على الأقل من المنظور النفسى. الهوية دلالة على صفة للشخصية وهي علامة اجتماعية لها. فكل منا يتفاخر بامتلاكه هويات لصفات لها الاعتبار الاجتماعى للدلالة على الامتياز والتفوق. هل كل منا يجرؤ على يمتلك هوية الطبيب ما لم يكن طبيباً بالفعل. أي عمل خلاف هذا يعدّ من الوجهة القانونية انتحالا لصفة لا تتوافر للشخص المعنى. وهكذا يمكننا ان نتعامل مع باقى الأدوار الاجتماعية أو رموزها ودلالاتها عبر نوع الهوية والرمز الذي تحيل إليه، فهي من ثم قناة عبور إلى هذا الرمز أو ذاك. على المستوى النفسى الذي توفره الهوية هي وضعية الاطمئنان والأمن لصاحبها ثم مرونة الحركة داخل هذا النسق أو الدلالة أو تلك. فلو

كنت احمل هوية ضابط... سأصرف واثقة وقوة وامتلاء حدّ الرعونة والانفلات إذا تتطلب الأمر لأترجم سلوك الهيمنة إزاء الآخر حتى اظهر له من أنا وبالتالي كيف ينبغي لهذا الآخر أن يتعامل معي ويحترمني ويخافني ويخشاني. وهكذا مع كل الهويات. ولا نريد ان نسأل "بلنداً" ما هوية هذه "الهويات العشر التي يحملها في جيبه" حتى أوحى لنفسه تلك القدرة للعبور أو الخروج لمواجهة الآخر ومعاتبته بل مساءلته عن سبب تحامله واتخاذ موقف منه. لا نعتقد ان بلنداً كان منطقياً مع نفسه أو مع الواقع عندما قال.. أو تخيل انه يحمل "عشر هويات" ومتى حصل عليها لتمنحه هذه القوة للسخرية من العالم. هنا يتجلى هذا السلوك الهوسي بأعلى صورته عند "بلند" ويمكننا اعتباره دالة واضحة على هذا الانتفاخ والتنرجس المرضي لديه. لنرى كيف يترجم "بلند" هذا الانتفاخ في سلوكه مع عالمه اليومي. يقول "بلند":

كان البحر بلا شطآن

والظلمة كانت أكبر من عيني انسان

اعمق من عيني انسان

ورصيف الشارع كان..

خلوا إلا من صوت حذائي

طق.. طق.. طق..

اجمع ظلي في مصباح حيننا.. وأوزعه حيننا

وضحكت لاني

ادركت بأني

أملك ظلي

وبأني أقدر ان أرميه ورأني

ان اغرقه في بركة ماء ووحل
ان اسحقه تحت حدائي
ان اخنقه بين ردائي
طق.. طق.. طق..
الظل ورائي.. ورائي.. ورائي
ما أكبر ظلك أنسانا يملك عشر هويات
في زمن لا يملك أي هوية

المرجع السابق، ص ٦٣٩-٦٤٠

هذا هو العالم الذي خرج إليه " بلند ". ونستطيع القول، وبكل ثقة، ان هذا العالم هو عالم غريب على " بلند ". ولذلك فأنا من الطبيعي أو المنطقي ان لا يشعر به فكلاهما على طرفي نقيض. كل منهما في اتجاه مختلف عن الاتجاه الآخر. ومن البديهي ان ينعته أو يراه على هذه الصورة أو على هذا النحو. انها صورة قاتمة.. سوداوية، ولنقل بتعبيره هو.. مظلمة، تملؤه بالكامل. مضافا إليها الخواء والفراغ واللامعنى وإذا شئنا الدقة، وهو ما نتوقعه، ان " بلندا" يفكر بعدمية الوجود وإلغائه. وكل المفردات التي استخدمها الشاعر هي مفردات دالة، وبوضوح، على ما نقول. البحر بلا شيطان. أليست العبارة مفارقة إذا أخذناه على حرفيتها. كيف يكون البحر، وهو المملوء بالماء، بلا شيطان. في تقديرنا انه تعبير عن ضياع العالم وفراغه. بل أكثر من ذلك انه مكتظ بالصمت.. بالخرس... بالعجز عن التعبير عمّا يريده.. وعاجز عن احتواء الشاعر. هذا الصمت المميت جعل الشاعر لا ينتبه إلا لصوت حدائه. هذا الانتباه تحول فيما بعد إلى انشغال هوسي وبؤرة تركيز الشاعر. ستجعل الحذاء فيما بعد رمزا إلى العالم نفسه. العالم

إذن ليس غير حذاء " بلند ". هنا الانتفاخ صار أوضح وأكبر لدى الشاعر. ليس في الوجود غير " بلند " وهذا الحذاء اللعين. كان الشاعر مصدراً للنور والضياء. يستطيع ان يوزع ظله وينشره كما يشاء. انها لحظة من هيمنة الشعور بالاطلاقية لدى الشاعر. كثيرا ما نجد مثل هذه اللحظات في بعض الأشكال السريرية لمرض الفصام. والواقع ان بلند ادرك سخافة مثل هذه الأفكار. فضحك. والضحك هو الآخر علامة، إذا كان ذاتيا محضاً.. اعني إذا كان مع الذات من دون وجود الآخر، علامة على عودة الوعي لدى الأنا وبالتالي عودتها الى العالم متقبلة إياه أو رافضة له على حد سواء. وفي هذه الحالة يكون الضحك علامة على الصحة العقلية ووجود عنصر الاستبصار Insight لديها. على النقيض من ذلك يكون الضحك، خصوصا، إذا اخذ شكلا جهوريا على شكل قهقهة عالية Roar أو Horselaugh وعلى مرأى من الآخرين قد يكون اجباريا ويشاهد في بعض حالات الهبفرينيا وبعض اضطرابات المهادة³. ومن المؤكد ان "بلندا" لم يك ضمن هذه الفئة من البشر!! فهو ضحك من سخافة أفكاره وغرابتها وكونه كان وحيدا في الشارع ولم يره احد. وقد يكون الضحك نتيجة وجود هلوسة بصرية يعتقد المريض فيها بوجود شخص أمامه يلاعبه أو يلاطفه أو يثير فيه الضحك. وللمرة الأولى، على ما يبدو، أو كما يقول " بلند نفسه، ادرك بأنه حر. وهذا الإدراك للحرية جاء من اكتشافه بأنه يملك ظله. امتلاك الظل إشارة واضحة إلى اعتقاد " بلند " بأنه مسلوب الهوية بالكامل. وذلك السلب جاء من العالم. وهو الآن حر وسعيد لأنه وحيد في العالم أو قل انه بلا عالم يزعجه أو يكدر صفوه. وهو سعيد بموسيقى أناه الداخلية الجميلة. ان التركيز على طقطقة الحذاء إنما هو إشارة إلى صد الوجه عن العالم. ويكرر " بلند " هذه الطقطقة لأنها تشكل لديه دلالة الانهمام بالذات. وإذا كان بلند حرا ويمتلك ظله فلماذا هذا الخوف والتوجس منه. هل يشكل الظل الماضي المقيت والمخفي في حياة الشاعر؟

هل يرمز الظل إلى الآخر.. صاحب السلطة الذي يلاحقه أينما كان؟ لماذا هذا العداء له. نحن لا نصادر الشاعر ونفرض عليه تصوراتنا. مفردات الشاعر هي ذاتها تحيلنا الى هذه التصورات تلقائيا. له القدرة الآن على ان يهيمن على ظله. ان يخنقه.. ان يرميه وراءه.. ان يسحقه تحت حذاءه هو الآخر. هل الظل يرمز إلى العالم الذي يزعج الشاعر ويخدش أحاسيسه ومشاعره. المهم هو ان هناك عداً بين الشاعر وظله. ليته لم يكتشف ذلك. يبدو أنه أصبح عبئاً ثقيلاً لا يطاق. وعلى الرغم من محاولات الشاعر على تجاوز هذا الظل.. لكن الظل لم ينفك من ملاحظته على ما يبدو.. حتى ان هوياته العشر لم تسعفه ولم تكن قادرة على تخليصه من ظله. فهو في العبارات الأخيرة يؤكد لنا ما نذهب إليه. لم تعد هناك حاجة ما إلى كم الهويات التي يحملها.. سواء أكان الرقم صغيراً أم كبيراً. والمسألة المهمة هو هذا الأسف والحزن والأنين الذي يلف الشاعر عندما عجز عن مواجهة الزمن الذي اتهمه بأنه بلا هوية. إذن هنا شعور بالخور والضعف بل حتى الضياع في زمن ضائع. الشاعر هنا غارق في التشاؤم ولا أريد القول ان هذا التشاؤم قاد الشاعر إلى الإصابة بالضجر والملل. تلك إذن هي الليلة الأولى التي خرج بها الشاعر من صمته الإجباري إذا صح مثل هذا التعبير. يستمر الشاعر في تكراره عن التعبير عن انفعالاته في المقطع الثاني مع التركيز على بعض الانفجارات السلوكية المتناقضة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على السخط العميق الذي يكنه الشاعر عن العالم. يقول الشاعر في هذا المقطع:

غنيت،

صفرت،

صرخت،

ضحكت.. ضحكت.. ضحكت

وأحسست بأني أملك كل البحر وكل الليل
وكل الأرضفة السوداء
وإني اجبرها الان على أن تصغي لي
ان تصبح رجعا لندائي
ان تصبح جزءاً من صوت حذائي
طق.. طق.. طق...
ومددت يدي.. ما زالت عشر هوياتي في جيبي
هذا اسمي
هذا رسمي
هذا ختم مدير الشرطة في بلدي
هذا توقيع وزير العدل وقد مد به زهو حزن فمي
وأطاح بسن من اسناني
خدش بعضاً من عنواني
وخشيت بأن... فبلعت لساني
ومعي سبه هويات اخرى
اقسم لو مرّ بها جبل احنى قامته ولقال :
هي الكبرى
عن شعري
عن ادبي
عن علمي
عن فني
ولاني

احمل عشر هويات في جيبى

غنيت

صفرت

صرخت

ضحكت.. ضحكت.. ضحكت

ما أكبر ذلك انسانا يحمل عشر هويات في عتمة ليل

عشر هويات في زمن لا يملك إي هوية

المرجع السابق، ص ٦٤٠-٦٤٢

الشاعر لا يزال على حاله ولم تتغير أحزانه. وهناك فلتات لسان إذا صح التعبير. فتثبيت نقاط بعد المفردة دلالة على رغبة في الإحجام عن أكمل مدلولها الكامل ومعناها الصريح. إذن هناك مسكوت عنه في المقطع. يبدو ان لدى " بلند " إشكالية مع وزير العدل. ولماذا وزير العدل على وجه التحديد؟. معنى هذا ان هناك عدم إنصاف في القضية ومصادرة حقوق أو سلب حريات أو كبت آراء. وكان رد فعل الشاعر هو قمع المفردة وبلع اللسان. عبارة " بلع اللسان " دالة لعملية القمع تلك. كما ان الشاعر يذكر، صراحة، ان الوزير أصبح مزهوا لدرجة الغي الشاعر وهمشه.

ولا ادري هل كان هذا التهميش من قبل سعادة وزير العدل للشاعر بسبب انتمائه الايدولوجي أم بسبب انتمائه القومي؟؟؟. ويستمر الشاعر بسرد، وبفخر وزهو عن قدراته وطاقاته وما يمتلكه من خصائص وقدرات.. حتى انه أضاف سبع هويات اخرى إلى هوياته السابقة. ولكنها هي الأخرى لم تجد نفعا مع الزمن الذي لا يملك هوية أصلا. وبقي الظل هو الكائن الوحيد الذي استطاع ان يقبل الشاعر. فاستطاع ان يميزه من دجى الليل وعتماته.

السلوك الذي قام به الشاعر في هذا المقطع هو الصغير. وهنا هو دال على الزهو والخيلاء التي لفته وهو يسير في شارع معتم حاملا في جيبه سبع عشرة هوية ولا احد يهتم به. كم أنت مسكين يا "بلند". حقا ان "قدر المفكرين لحزين" كما يقول "نيتشه" فيلسوف الإنسان الأعلى. إذن فالحزن هو قدر الشاعر والمفكر وكل إنسان مختلف ومتمايز. يفاجئنا الشاعر في المقطع التالي أن إحساسه بالخوف ومن البوليس أو الشرطة على وجه الخصوص وهذا هاجس يعيشه المثقف العربي عموماً. هذا الخوف هو مصدر إزعاج مستمر للشاعر. وسواء عاشه في مخيلته فقط أم على أرض الواقع. فهو مهيمن عليه بحيث تصبح رموز السلطة موضوع انشغال دائم لديه. يقول:

في اليوم الثاني
كان ببابي شرطيان
سألاني من انت..؟
أنا..؟!
بلند بن اكرم
وانا من عائلة معروفة
وانا لم اقتل احدا
وانا لم اسرق احدا
وبجيبى عشر هويات تشهد لي
وبأني... فلماذا..؟
.....

أن سلوك " بلند " هنا سلوك دفاعي نكوصي. فهو.. هو ماذا؟.. هو لم يقل بأنه شاعر وبأنه يملك أدبا وعلما. بل نكص إلى العائلة والهويات العشر... كان الشاعر اعتماديا إذن. وربما أراد ان يختزل بالحالتين معا فهو هذا وذاك. لا زالت قضية الهويات، في تقديرنا، أمراً لا علاقة له بالواقع إلى حد ما. فقليل من الناس من يمتلك سمات وانتماءات مختلفة في وقت واحد. لأن الكثرة في الانتماء دالة على الضياع والتشتت والبعثرة. و لا يقبل " بلند " على نفسه ان يكون كذلك. ولا ان يكون دعيا على سبيل المثال.. فهو شاعر له قضية يسعى إلى تحقيقها. يستمر الشاعر في سرد حكايته مع الشرطيين فيقول:

ضحكا مني.. من كل هوياتي العشر

ورأيت يدا تومض في عيني

تسقط ما بين الخيبة والجبن

- انت مدان يا هذا

- يا هذا

ماذا فعلا باسمي.. وبرسمي وبتوقيع وزير العدل

لم ادر.. لم ادر

لكني ادركت بان هوياتي ما كانت الا شاهد زور

وبأني سأنام الليلة في السجن وباسم هوياتي العشر

وضحكت.. ضحكت.. ضحكت..

أنه اكتشاف متأخر. كان الشاعر يعيش وهما. وهماي الآن الحقيقة تتكشف وتنجلي. كيف كان وكم من الوقت مضى على الشاعر وهو يروح

تحت مطرقة هذا الوهم اللعين؟؟ هل كانت أيدي الشرطيين بمثابة صدمة كهربائية أعادت حالة الاستبصار إلى وعيه بذاته فخلصته من ذلك السبات الطويل. فلماذا يصف الشاعر هاتين اليدين بالجبن والخبية؟؟ المهم هو الخروج من تلك الغفلة ولذلك كان من المنطقي ان يطفح على سطح السلوك نوبات هستيرية من الضحك. كما هو واضح في نهاية المقطع.

في المقطع الأخير يخرج " بلند " بحكمة.. بقاعدة ذهبية للسلوك السوي.. بنموذج امثل للتعامل مع هذا الزمن. أعني.. زمن الشاعر. لنرى ما هي هذه القاعدة الذهبية التي خرج بها الشاعر بتجربته مع الزمن. يقول " بلند ":

في زمن لا يملك أي هوية
سيكون مدانا من يملك أي هوية
مزقها.. مزقها يا سجاني
اسحقها.. اسحقها يا سجاني
... وسمعت خطاه ورائي
طق.. طق.. طق
كان البحر له.. والليل له.. وجميع الأرصفة السوداء
طق.. طق.. طق

المرجع السابق، ص ٦٤٤

تلك هي القاعدة الذهبية إذن.. ان نمزق نحن أو سجانونا كل هوياتنا التي نمتلكها لكي نكون بلا هوية مثل زماننا الذي لا يملك هوية بل نسحقها تحت طقطقات الحذاء ونبقى نتيه في الليل مع البحر والأرصفة

السوداء.. لا نسمع سوى صدى رتيب ومؤلم لطققات الحذاء المتهرئ
اللعين....

الهوامش:

١. الحيدري، بلند ، ١٩٨٠، الديوان، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٢.
٢. بهنام ، شوقي يوسف، من كوة الزنانة : قراءة نفسية لمجموعة " أغاني الحارس المتعب"، موقع الندوة العربية www.arabicnadwah.com
٣. د. الخولي، وليم، ١٩٧٦، الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص ٢٧٦.
٤. عالجا هذه القضية عند الشاعر الكبير ادونيس في مقالنا المعنون " ادونيس وعصر الحذاء. راجع المقالة على موقع الندوة العربية.

بلند الحيدري وتعشق الظلمة

رؤية نفسية

علاقة الإنسان بعملية تعاقب الليل والنهار علاقة قديمة قدم الإنسان نفسه. ونحن لا نريد، هنا، ارجحة لهذه العلاقة لأنها موضوع قد يطول بنا وقد يدخلنا في تفاصيل كثيرة، نحن في غنى عنها، وقد تجرنا، كذلك إلى اقتحام ميادين معرفية قد.. بل من المؤكد.. انها تتجاوز مهمة هذه السطور. ومع ذلك فلا ضير.. البتة.. من الوقوف عند هذا الجانب أو ذاك الذي قد يساعدنا، بعض الشيء، على فهم دلالات تلك العلاقة من جهة ورمزية كل من الليل والنهار بالنسبة لتصورات الخبرة الإنسانية من جهة اخرى. ومن المنطقي ان نبدأ بالمنظورات الإنسانية البحتة صعوداً إلى المنظورات المرتبطة بالدلالات الدينية المعروفة. وقد أطلق الإنسان مفردات كثيرة للدلالة على عنصري تلك العلاقة.. اعني الليل والنهار. وليس من شأننا أيضاً؛ الدخول في الاشتقاقات اللغوية لمفردات الليل¹. ومن خصائص الليل وصفاته؛ الظلمة والعتمة والسواد وما إلى ذلك. ولقد أسهب عالم الانثروبولوجيا الفرنسي " جيلبير دوران " في عدد من الصفحات كرسها لليل والظلمة وسوادها في كتابه المعنون " الانثروبولوجيا " حيث يقول " يبدو الليل الأسود إذن وكأنه المادة الأساسية للوقت، ففي الهند يدعى الزمن " كالا " وهذا اللفظ قريب جداً من " كالي " كما يعني كلاهما " اسود، قاتم " في حين يدعى عصرنا الحديث " كالي - يوغا " أي " عصر الظلمات. ذلك ما يدفع ميرسيا الياد لأن يلاحظ ان " الزمن أسود لأنه دون منطق

ورحمة " وذلك ما يفسر أيضا لماذا يعتبر الليل مقدسا عند كثير من الشعوب مثل " نيكس " الهلينية وال " نوت " السكندنافية اللتين تمتطي كل عربة تجرها خيول سوداء واللتين تعتبران رمزين أسطوريين مخيفين .. والليل يجمع في مادته المشئومة كل التقييمات السلبية.. فالظلمات هي دائما سديم وصيرير أسنان.. وحتى التعابير الشعبية تسمي ساعة الغسق "بين الكلب والذئب" ٢... والواقع هذا الفصل ممتع في مادته من حيث إحاطته بالرمزيات المختلفة للظلمة وما كانت هذه العبارات غير عينة صغيرة فقط. أما في حضارات الشرق أوسطية فيحدثنا عنها الأب " بولس الفغالي بما يلي " في العهد القديم.. في خبر الخلق، الظلمة هي خليفة الله تجاه النور في إطار الشواش الأولاني. وحتى في الظلمة المطلقة التي هي ظل الموت، الله يستطيع ان يتدخل. فهو الذي كَوَّن النور وخلق الظلمة. وبالنسبة إليه لا تعود الظلمة ظلمة لأن النهار يخص الله والليل ويومه الاسكاتولوجي قد يكون ظلمة لا نورا. الظلمة قوة معادية تصيب الأشرار. فتصف كتابات قمران مجمل الشر ولكن حين يتدخل الله، يرى الشعب نورا عظيما. وفي العهد الجديد فان الظلمة البرانية هي موضع العذاب للأشرار. في ساعة الموت، رأى يسوع قوة الظلمة تعمل عليها. واستعاد بطرس في خطبته نبوءة يوثيل فتقلب الشمس ظلما لتدل على نهاية الأزمنة. وفي نظر بولس، الاهتداء إلى الله هو عبور من الظلمة إلى النور وهو الذي سمى الخطايا " أعمال الظلام ". وفي مثنوى الموتى تسود الظلمة والعتمة^٣. ومنتقل إلى التصورات الإسلامية لمفهوم الظلمة والليل وما يرتبط بها من مفاهيم، حيث ينقلنا الباحث مالك شبل^٤ إلى تلك التصورات على النحو التالي " يرمز الظلام الى عمى الكافر ، وهو في حالة "عدم الظهور المطلق " وبكلام آخر هو العجز عن النفاذ الى أسرار الخلق. يظهر المعنى في القرآن تحت صيغة نادرة : التكوير ، وهو عنوان السورة الحادية والثمانين ؛ يترجمها " بلاشير " بمعنى الإظلام والتعتيم، و" دنيزماسون " بمعنى الحل،

الانفكاك. و " جاك بيرك " بمعنى، وكلمة ديجور تؤدي معنى الظلام^٥. وللظلمة معنى يفيد بدايات الخليقة إذ لا وجود الا للذات الإلهية في الأزل قبل إشعاع التجلي^٦. وفي منظور الطب النفسي تستحيل الظلمة إلى موضوع للرغبة والولع والعشق ويطلق عليها Lygophilia ويعرفها الحفني أنها "ولع يكاد يكون هوسا بالأماكن المعتمة، وشغف مرضي بالأوقات التي يتخللها الظلام كأوقات الغروب، أو عندما تغيب الشمس وراء السحب، وميل قاهر إلى الظلال والألوان القاتمة، ويكثر عن الشعراء والمصورين إلى حد ما، والبعض قد يفسره بأنه استشراف للمجهول أو للعدمية، وقد يعكس ميولا الكتابية^٧. ومن وجهة نظر فلسفية يدخلنا الدكتور زكريا ابراهيم إلى صورة ميتافيزيقية عميقة عما يسميه ب " تجربة الظلام " حيث يقول " ان الليل هو تجربة ميتافيزيقية فيها نصطمم بذلك الحضور الثقيل الذي هو حضور الوجود العام"^٨. ويستشهد هذا الباحث بأقوال الفيلسوف الفرنسي ميرلوبونتي " الذي تحدث عن تجربته الوجود في الظلام وعلاقتها بالذات أو الأنا. تلك إذن المفاهيم الإنسانية والدينية عن الظلمة ونحن قد توقفنا عندها لتتعرف على مفهوم " بلند " لها كما تصورها في منجزه الشعري. والواقع ان الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر متخمة ، إن صح التعبير، بالمفردات الدالة على الظلمة ومرادفاتها. والباحث المختص يستطيع ان يضع جدولاً لمعرفة انتشار تلك المفردات في هذه الأعمال. والمفردة التي استخدمناها هنا ، اعني مفردة متخمة، هي اختصار لذلك الجدول. ولاشك في ان هذه الصفحات لن تغطي على كل المواقع التي ترد فيها مفردة ظلمة ومرادفاتها من مجموع منجزه الشعري. ولنبدأ رحلتنا مع الشاعر لنجوب عوالم ظلماته.

في المقطع الثاني من قصيدة " نشيج " يحدثنا الشاعر عن أحزانه الليلية فيقول:-

يا دمعتي
الليل قد خيمت أشباحه
في غرفتي البالية
لله
خليني إلى وحدتي
أبث للشمعة أشجانيه
فشمعتي شاعرة طالما
غنت لي النور بأجوائيه
تشكو لي النار
وأشكو لها
نارا
من الحب بخفاقيه
تصارع الليل فما ينتهي
كأنما الظلماء
أياميه
صفراء في اللون كطيف التي
وهبتها العمر
وأحلاميه
يا شمعتي..
أمسك الضر...أم..
سرت بأحشائك أدوائيه

أم هذه الصفرة
من وجهها
تذكرة
تلهب أشواقه
يا شمعتي
ماتت عهود الهوى
دفنتها في ليل أوهاميه
لم يبق من حبي
إلا صدى
مشوش
يرثي
لآماله

الأعمال الكاملة، ص ١٠١ - ١٠٣

بلند ينقلنا إلى خبرة ذاتية صرفة يعيش من خلالها علاقتة مع المكان. ولكن لا مكان بدون زمان. الا ان هذه العلاقة تعبق بروائح الماضي. بتعبير أدق فان الشاعر يتجاهل الحاضر ويتقهرق الى ماضيه المشوش. والخطاب الموجه الى الذات وهو ما يسمى في مفاهيم علم تحليل الخطاب Monologue دونما وجود للآخر الموضوعي الخارج عن الذات أو ما يسمى "المناجاة"٩. فالشاعر يوجه نداءه إلى مجموعة من الأشياء التي تحيط به مثل الشمعة والغرفة ودمعته والليل الذي يلفها من كل جهة. والشاعر يعرف حق المعرفة ان لا جواب من هذه الأشياء. فهو بالتالي خطاب أحادي صرف.

ومع ذلك فهو يستمر في تلك المناجاة لأنها وسليته الوحيدة للتفريغ
الانفعالي لديه. هذه صورة واحدة لموقف بلند من الظلمة. في قصيدة " لا
شيء هنا " يصور لنا الشاعر أزمته في الوجود. لنقرأ القصيدة لنرى أبعاد
تلك الأزمة. يقول الشاعر:

ايه يا فجر صباباتي.. انتته
لملم الآن صبابات المنى
كل شئى قد طوى تاريخه
وانطوى في ظل عهد
موهنا
اتكا الماضي على أحلامه
يلعن الصمت
ويشكو الزمنا
وسيمضي اليوم محموم الخطى
يتمطى
فوق رجليه الضنى
توغل الظلمة في أيامه
وهو كالأمس يصلي للسنا

المصدر السابق، ص ١١٢ - ١١٣

أن الظلمة في هذا المقطع ستقترن بمستقبل الشاعر في هذا الوجود.
ينبغي ان نلاحظ ان الشاعر موغل في اليأس فالظلمة توغل في كل أيامه.

بمعنى آخر.. كل أبعاد الزمان. لن نتجنى على الشاعر ونصفه بأنه صديق
الحزن. ماضيه مظلم..حاضره مظلم. مستقبله كذلك.يستمر الشاعر فيقول
—

كل ما في حاضري يصرخ بي
أيها المجنون... لا شيء هنا.

المصدر نفسه ، ص ١١٣

هذه الأصوات التي تناهت إلى الشاعر هي حصيلة ذلك تلك الضغوط
الحياتية والتجارب المؤلمة التي عاشها الشاعر.
أيها المجنون... لا شيء هنا

تلك هي المحصلة إذن ، وهي محصلة مؤلمة إلى حد كبير، وذلك لسببين.
السبب الأول هو تلك النهاية المفجعة للذات ؛ السقوط في دائرة الجنون.
والسبب الثاني هو لا وجود لما كان يبحث عنه الشاعر هناك. فماذا ينتظر
إذن. هل هناك من أمل يتوقعه الشاعر؟ لنرى في مقطع لاحق كيف يرسم
لنا الشاعر مسار الزمان...زمانه هو على وجه الخصوص:

ها هو الحب يولي

هربا

لم يعد كالأمس

ان غارت به

مدية الحزن تغنى بالألم

ومضى ينسج من تلك الدما

خفقة النور وإلهام الظلم
وإذا ما الدهر أبلى أملا
كانت التوبة في جرح
ودم
كيف أمسى طلالا كابي الرؤى
وصحارى
من رمال...وعدم
كلما لذت بدنياه امحت
غير سطر قال : لا شيء هنا

المصدر السابق، ص ١١٣ - ١١٤

وواضح من المفردات التي يستخدمها الشاعر للتعبير عن مسار زمانه انها مفردات مفعمة بالتشاؤم والقنوط واليأس واللاجدوى في الوجود. اعني وجوده الخاص هو. ورغبته الشاعر الأساسية التي يتمحور عليها الشاعر، هنا، هي ان يكون محبوبا من الآخر. والشاعر كثيرا ، على ما يبدو يركز على قضية ان يكون محبوبا على وجه العموم من الآخرين. فهو يعاني ويشكو من الهجر والتخلي والصد بل يصل الأمر به الى الخيانة. تلك المشاعر تدرج ضمن المشاعر التي تهيمن على الشخصية الفصامية من النوع الاضطهادي. ذلك النمط الذي يعاني من سوء فهم نوايا الآخرين إزاءه. وفي أوج أزمة الشاعر هذه، ينعدم الشعور بالزمان وديمومته وعلامات تلك العلاقة مع الزمان لديه، تتضح في قوله:

كل آمالي تلاشت

مثلما يتلاشى النور عند الغسق

وتساوى الليل عندي
والضحى
رب ليل فجره لم يفق
أجرع الحزن كؤوسا
كلما
أفرغت أترعتها من أرقى
صوبت من كل صوب أسهم
لست ادري
أي سهم أتقى
وإذا استنجدت بالوهم
هوت
مدية الأحزان تفري مخنقي

نفس المصدر السابق، ص ١١٤ - ١١٥

الجزء الأخير من هذا المقطع هو تناص مع قول المتنبي:

أي محل ارتقى أي عظيم أتقى
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

ديوان المتنبي، ج ٢، ص ٣٢

قول المتنبي هذا قاله مرتجلا في صباه وهو قول يفوح منه عبق نرجسي

منقطع النظير. الصورة معكوسة عند شاعرنا. الإحساس بالاضطهاد هو المحور الذي يدور في فلكه. فيلند، يشعر بالتعاسة من كل حدب وصوب. فتساوت الأمور لديه واختلطت المعايير عنده أوفي العالم المحدق به. كلا الاحساسين وارد ومحتمل. ضياع وفقدان المعايير في العالم يقود بالفرد الى عدم معرفة الطرق السليمة للتوافق معه. إذن شاعرنا يعيش أزمة ضياع وجودي إن صح التعبير. وتأثر الشاعر بالمفاهيم الوجودية لا يحتاج إلى جهد للوصول إليه. وهذا ما نراه في قوله:

أيها التائه في ودياننا
ضل مسراك فلا شيء هنا

الديوان ، ص ١١٥

فعلاوة على تيهانه في وديان هذا العالم فهو موقن كل اليقين بأن الوجود بلا جدوى الوجود. وهذا اليقين جاءه من نداء خارجي كذاك النداء الذي باغت الخيام في ساعة السحر وأيقظه من سباته الروحي فبدأ بالتساؤل الفلسفي عن وجوده في الوجود. وهاهو شاعرنا يعيش ذات الأزمة. لنرى كيف يرى شاعرنا نفسه.. اي ما هي صورته عن نفسه؟. يقول بلند:

أنا إنسان كباقي الناس
لكن... ويح نفسي إنسان
تراني
ليس لي ماض
وما لي غير يوم

يرسم العمر على سود أغاني
وغدي
فوق يد الغيب دنى
لتهاويل رماد
ودخان
تخفق الأيام في راحته
بالأسى
بالذعر
بالصمت المهان
وسيمضي مثل يومي بددا
ذابل الأحلام مخنوق الأماني

الديوان ، ص ١١٦-١١٧

لا أريد ان اعلق كثيرا على قوله " ليس لي ماضٍ ". فالشاعر يجبرنا على ان نتبنى تأويلا مفاده ان ماضي الشاعر ملبد بالتعاسة. هل يخجل الشاعر من ماضيه إلى هذه الدرجة التي يوحي بها هذا المقطع؟؟ هذا الخجل سينسحب إلى الحاضر والمستقبل. صورة بلند عن نفسه في الزمن صورة سلبية تماما. إذن ماهو؟ هذا ما نراه في المقطع الاتي:

تتلوى في دمائي صيحة
أيها السادر لا شيء هنا

الديوان، ص ١١٧

إن بلند ليس غير صيحة تتلوى في دمائه وهذه الصيحة لن تجد غير
جواب واحدا هو:-

أيها السادر لا شيء هنا

لنرى كيف يرسم لنا الشاعر صورته عن المستقبل...اعني مستقبله هو.
وهذا ما نجده في المقطع الأخير من القصيدة. ها هو الشاعر يقول:

وغدا للقبر تسعى قدمي

كي أريق العمر في مظلمه

ويبيد القدر الغافي على

قلبي المحموم بقيا حلمه

فإذا العالم

حس هامد

ترقص الظلمة في مآتمه

وإذا مرسم الهامي دجى

تنعب الديدان في مرسمه

كلما لج بها الجوع

مضت

تنحت الحكمة في أعضمه :

يا أخا الروح الذي استحققنا

كل دنياك

بأيدينا

.....هنا

أيها الإنسان يا من دستني

دودة.... دنياك في كفي....هنا

الديوان، ص ١١٧-١١٨

إذن تلك هي النهاية المفجعة التي ينتظرها الشاعر وذلك هو مستقبله في هذا الوجود. والشاعر في قرارة نفسه يرفض هذا المصير المخيف. لقد استخدم عبارة "وغدا للقبر تسعى قدمي" للدلالة على ان هذا الخيار ليس من اختياره. انه القدر والذي يصفه "الغافي" والذي لا يملك ملكة الاختيار في مهمته. انه أعمى وحسب. كل هذا الإنسان الذي حلم "ماركس" بتحريره وكان قد سماه "انه أئمن رأسمال في الوجود سوف ينتهي بين كفي دودة !! ونحن نعتقد ان حلم "ماركس" هذا كان من الأحلام التي تيناها شاعرنا في ما بعد.ومن امتعاضه من تلك النهاية المخيبة للآمال. وتلعب الظلمة هنا دورا مهما. فليست حياته الذاتية هي التي تسودها الظلمة بل العالم كله يرزح تحت نير الظلمة حتى في أدق تفاصيله. ان الشاعر يعيش حالة سأم Boredom دائم. فالعالم من حوله تلبدته الظلمة وحياته من الداخل هي الأخرى مفعمة بالظلمة والخواء والفراغ واللامعنى حتى وصل به الأمر إلى ان يخاطب الفناء لكي ينهي تلك المهزلة. وهذا ما نجده في قصيدته "السأم". يقول:

يا طيوف الفناء هذي حياتي

دمريها

فقد سئمت الوجودا

بدلي النور

بالظلام
ودوسي
تحت رجلك عمري المكودا
فقد سئمت الحياة أطلال صمت
ودموعا
ينسجن حولي الشقاء
وركاما من الهموم الجواثي
فوق قلبي
تهده اعياء

الديوان، ص ١٢٧-١٢٨

إذن فهذه هي أمنية الشاعر في تحديد نهايته المأساوية في هذا العالم.
والشاعر يرى العالم الذي من حوله سجنًا مظلماً يزداد حلقة وظلاماً يوماً
بعد يوم. فالنزعة التفاؤلية غائبة لديه، في حين نرى روح التشاؤم هي
المهيمنة والسائدة لديه. وها هو في قصيدة الطبيعة الغاضبة وفي المقطع
الأول منها على وجه التحديد يقول:

الليل جاث
والظلام مكشر عن نابيه
والرعد يرعد كلما هتف السناء ببابه
فكأن خلف الليل
قلبا مل طول عذابه
سئم الدجى والوحشة الرعناء ملء

اهابه

سئم السكون تعربد الأشباح في محرابه

الديوان، ص ١٤٥

الدارس لديوان الشاعر " بلند الحيدري " يجد، كما قلنا، عشرات المفردات
والعبارات التي يعج بها ديوانه والتي تدل على هيمنة فكرة الظلمة
وسطوتها وهموم الليل وضغوطه على أنفاسه لدرجة لا يتسع فيها الحديث
عنها في هذه المحاولة ولكن ذلك ليس بالعمل المستحيل لدى الباحث الذي
يحاول رصد كل نصوص الديوان وقصائده.

الهوامش:

١. معلوف، لويس، ١٩٩٦، المنجد في اللغة، انتشارت إسلام، طهران، ص ٧٤٢-٧٤٣.
٢. هذه العبارات موجودة في صفحة ٦٦ ومن الفصل المعنون "الرموز الظلامية" من كتاب س جيلبير دوران "وبترجمة: د. مصباح الصمد والمنشور من قبل المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لعام ٢٠٠٦، ط٢، ص ٦٤-٧٠.
٣. الأب، الفغالي، بولس، ٢٠٠٣، المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، المكتبة البوليسية، جونيه، لبنان، ط١، ص ٧٩٥.
٤. يقلل الباحث المغربي "فريد الزاهي" من أهمية عمل مالك شبيل حيث يصفه بالعمل الصحفي أكثر من كونه بحثا علميا أكاديميا. راجع ؛
د. الزاهي، فريد، ١٩٩٩، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، أفريقيا الشرق، لبنان، المغرب، ص ١٥.
٥. شبيل، مالك، ٢٠٠٠، معجم الرموز الإسلامية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص ١٩٨.
٦. شبيل، مرجع سابق، نفس الصفحة السابقة. وراجع مفهوم الظل في رمزيته الإنسانية؛ د. خليل، احمد خليل، معجم الرموز، ١٩٩٥، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ص ١١٠.
٧. د. الحفني، عبد المنعم، ٢٠٠٣، موسوعة الطب النفسي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٤، ج ١، ص ٣٦٣.
٨. د. زكريا، ابراهيم، ١٩٦٢، تأملات فلسفية، دار الآداب، بيروت، لبنان، ص ٢٠١.
٩. مانفونو، دومينيك، ٢٠٠٨، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ص ٨٧-٨٨.

